عة الصغيرة
١١٦

البحث البلاغي عند العرب

تأليف
د. أحمد مطلوب

المؤلف في سطور

الدكتور احمد مطلوب

● ولد في تكريت يوم الاحد ٢٥ تشرين الاول ١٩٣٦.

● اكمل الابتدائية والمتوسطة في تكريت والثانوية في كربلاء وبغداد.

● تخرج في كلية الآداب ببغداد سنة ١٩٥٦ بدرجة امتياز خاصة.

● اكمل الماجستير في كلية الاداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦١ والدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى سنة ١٩٦٣م.

● تقلد عدة مناصب وهو الان استاذ البلاغة والنقد في كلية الآداب بجامعة بغداد.

● درّس وحاضر في جامعات عربية واجنبية.

● أصدر اربعة عشر كتابا في البلاغة والنقد والتعريب.

● أصدر اربعة عشر كتابا تراثياً في البلاغة والشعر واللغة.

● أخر كتبه معجم البلاغة العربية في ثلاثة مجلدات.

● شارك في وضع سبعة كتب مدرسية في النحو والبلاغة والنصوص.

البحث البلاغي عنــــد العرب

تاليف د . احمــد مطلوب

منشورات دار الجاحظ للنشر ـ بغـداد

الجمهورية العراقية 1982

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه اوراق توجز نشاة البلاغة العربية ، وتحدد احداثها ، وترسم مناهجها ، وقد اريد لها ان تظهر في وقت اعرض الناشئة فيه عن تراث الامة واصول لغتها المعطاء .

والبلاغة من العلوم العربية التي لم تنضج ولم تحترق ـ كما يقول القدماء ـ فباب الاجتهاد فيها قائم ، وسبيل الرجوع اليها متصل ما دامت العربية خالدة ، وما دام اسلوبها زاد المنشئين . وقد نشات لتصون التراث وتضع المعالم في الطريق ، وكانت قضية الاعجاز أهم ما شغل به الدارسون ، وكانت القدرة البيانية انبل ما سعى اليه الشعراء والكتاب حين ازدهر الادب وبنى العرب حضارتهم التي عمت الافاق . ولو قدر للبلاغة ان يستمر عطاؤها لكان لها شان غير ما وصلت اليه في الفترة الحالكة التي مر بها العرب بعد عام ٦٥٦ للهجرة .

والحديث عن البلاغة طويل ، والبحث في مناهجها يطول ، ولكن هذه الاوراق تضع المعالم وتدفع الباحثين الى اقامة ما لم يخططه السلف أو ظنوا ان فيه الغنى في عهدهم ، وما هو بالمغني في هذا العصر الذي تطورت فيه اللغة العربية واستحدثت فنون لم يكن لها ظل في كتب المتقدمين .

ان هذه الاوراق تقف عند اهم قضايا البحث البلاغي عند العرب ، وهي قضايا تتضح في النشأة والاهداف والمؤثرات والاتجاهات والمناهج ، وان لم يتم التفصيل في بحثها — لانها تهدف الى الثقافة العامة والى اثارة الهمم — فانها جمعت ما استطاعت ان تصور به ذلك البحث ، وترسم المنهج الجديد ، وهو منهج سداه التراث ولحمته الاتجاهات المعاصرة في عالم الفكر والتاليف . فان اصاب الهدف فذلك ما سعى اليه البحث جاداً ، وان اخطأ المرمى فهو راي يعرض له التقويم وينالـه الاصلاح ؛ لان البلاغة فن لا يقف عند تصور باحث واحد ولا يحده عصر من العصور .

والله ولـي التوفيـق .

الدكتور احمد مطلوب
١٠ حزيران ١٩٨١م
٨ شعبان ١٤٠١هـ
الاربعاء

(١)

النشأة

البلاغة علم من علوم اللغة العربية ، وكانت من مقاييس النقد الادبي منذ عهد مبكر ؛ بل هي روح الادب تعلم صنعه وتبصر بنقده .

والبلاغة — لغة — الوصول والانتهاء وفي لسان العرب : « بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى . تبلغ بالشيء : وصل الى مراده . الابلاغ : الايصال . بلغت المكان بلوغا : وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت عليه » . واشار ابن منظور الى المعنى الاصطلاحي فقال : « البلاغة » : الفصاحة ، والبَلْغ والبِلْغ : البليغ من الرجال . ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغ : حسن الكلام فصيحه ، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، والجمع بلغاء . وقد بلُغ بلاغة : صار بليغا »(١) .

وهذا هو المعنى العام لكلمة « البلاغة » فهي اولا الانتهاء والوصول ، وهي ثانيا الفصاحة وحسن القول . وقد جاءت في القرآن الكريم بهذين المعنيين ، فمن الاول قوله تعالى : « ولما بلغ اشده »(٢) وقوله : « وبلغ أربعين سنة »(٣) وقوله : « وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس »(٤) ، وهذا هو الوصول والانتهاء ، اما المعنى الثاني فكقوله تعالى : « فاعرض

عنهم وعظهم وقل لهم في انفسهم قولا بليغا »(٥) ، ويقع تفسير ذلك على وجهين :

الاول : ان يكون بذاته بليغا ، وذلك بان يجمع ثلاثة اوصاف : صوابا في موضوع لغته ، وطبقا للمعنى المقصود ، وصدقا في نفسه ، ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة .

الثاني : ان يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له ، وهو ان يقصد القائل امرا فيرده على وجه حقيق ان يقبله المقول له . وقوله تعالى : « وقل لهم في انفسهم قولا بليغا » يصح حمله على المعنيين (٦) .

ولا يبعد عن هذا المعنى العام ما جاء في كلام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وان كان يقول : « ان الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه » ، يريد بذلك التشادق والثرثرة لا القول البليغ الذي اشار اليه كتاب الله ، ووصف به نبيه عليه السلام .

ومرت كلمة « البلاغة » بهذا المعنى اللغوي العام ، وظلت سنوات تحمل فن القول حتى اذا بدات علوم اللغة العربية تظهر واخذت العلوم تستقر ، ظهر معناها العلمي الذي ابعدها عن حسن القول وبديع البيان ، فقال السكاكي : « هي بلوغ المتكلم في تادية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد التشبيه والمجاز على وجهها »(٧) . وهذا تعريف علمي

يحدد اسس البلاغة ويضع موضوعاتها في ابواب وفصول يقراها المتأدب ليصل الى الصيغ البليغة حينما يريد ان يتحدث او يكتب . ولكن تعريف السكاكي قاصر عن فنون البلاغة لانه لم يدخل علم البديع في ابوابها ، فهو وجوه يؤتى بها لتحسين الكلام ، وهذه الوجوه ليست من مرجعي البلاغة : المعاني والبيان .

وكان الخطيب القزويني آخر من وضع معالم البحث البلاغي ، وقد فرق بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم فقال عن الاولى : « واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »(٨) . ومقتضى الحال مختلف ، ومقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التاخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام . وقال القزويني عن الثانية : « واما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تاليف كلام بليغ »(٩) . وقسم البلاغة ثلاثة اقسام :

الاول : علم المعاني ، وهو « علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال »(١٠) . وهذا التعريف يختلف عن تعريف السكاكي وهو ان علم المعاني « تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل

بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »(١١) . وهذا أقرب معنى واكثر دقة لان الموضوعات التي تبحث في علم المعاني تتصل بالتراكيب وما يقع بين الجمل من تقديم وتاخير ، وحذف وذكر ، وقصر وغيره ، وفصل ووصل ، وما يطرأ على الكلام من اساليب متنوعة كالخبر والامر والنهي والاستفهام والتمني والنداء ، وما يحدث بين أجزاء الكلام من متعلقات .

الثاني : علم البيان وهو « علم يعرف بـــه إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »(١٢)، وهذا قريب من تعريف السكاكي وهو : « معرفة ايــراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضـــوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منـــه » (١٣) . وموضوعاته هي : التشبيه والمجاز والكناية .

الثالث : علم البديع ، وهو « ما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحـــال وفصاحته »(١٤) وهذا معنى قول السكاكي : « واذ قد تقرر ان البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، فههنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصـــد تحسين الكلام . فلا علينا أن نشير الى الاعرف منها وهي قسمان : قسم يرجع الى المعنى ، وقسم يرجع

الى اللفظ »(١٥) . وهذان هما : المحسنات المعنوية ، والمحسنات اللفظية .

ان البلاغة بهذا المعنى الذي استقر عند المتاخرين تعني العلم الذي يبحث في تركيب الكلام وصوره البيانية من تشبيه ومجاز وكناية ، ومحسناته اللفظية والمعنوية . وقد راى بعضهم في هذا العصر ان يسمى هذا العلم « فن القول » ، وراى اخر ان يسمى « فن التاليف الادبي » او « فن الانشاء » او «علم الاساليب» او « فن الانواع الادبية » ، وحجتهم في ذلك ان مصطلح « البلاغة » قد رث من كثرة ما تداولته الاجيال واصبح مقترنا بالوان الادب القائمة التي خلفتها العهود المتاخرة (١٦) . وليست العبرة بتغيير المصطلحات وانما بما يطرا على مناهج البحث من جدة وطرافة ؛ ومصطلح « البلاغة » اكثر تعبيرا عن مصطلحات بعض المحدثين ، وهي مصطلحات لا تحمل المعاني الكثيرة التي تحملها لفظة « البلاغة » . فلا « فن القول » ولا « علم الاساليب » ولا « فن الانشاء » تغني عن هذا المصطلح او تضم كل مباحثه واقسامه ، لان لكل مصطلح دلالته في لغته ، وان بعضها فقد محتواه واصبح يضيق بالبلاغة العربية ذات الارث العظيم .

ان مصطلح « البلاغة » يجمع كثيرا من المباحث التي لا يمكن ان تضمها المصطلحات الجديدة كالفصاحة او دراسة الالفاظ وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع،

وهي من أقدم الفنون التي عني بها البلاغيون واولوها اهمية عظيمة ؛ وكانت دراساتهم المفصلة ونظراتهم العميقةدليلا على تلك الاصالة، وقد عبّرالقزويني عن الملكة على انشاء الكلام ونقده تعبيرا دقيقا حينما قال : « واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . . . واما بلاغة المتكلم فهي مقدرة يقتدر بها على تاليف كلام بليغ »(١٧) . وفي هاتين العبارتين اشارة الى الملكةالادبية والتعبيرالادبي ؛ ولكن المتاخرين لم يحسنوا بحث هذه القضايا ، فظن بعض المعاصرين ان سبب ذلك قصور مصطلح « البلاغة » عن استيعاب الفنون .

ذلك معنى البلاغة كما استقر في كتب المتاخرين ؛ ولكن كيف نشا هذا العلم ؟ وهل كان العرب يرجعون الى كتب تعلّمهم البيان ؟

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى للبلاغة والنقد قبل عهد التدوين والتاليف يجد ان العرب عرفوا كثيرا من الاحكام النقدية التي اعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده . والامة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابدّ أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسمها الخطباء ، واذا كان كثير من الاحكام النقدية لم يصل مع ما وصل من شعر وخطب ؛ فان بعض تلك الاحكام تناقلته الالسن وتداولته الكتب . وقد وصف القرآن الكريم العرب بانهم اصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : « الرحمن . علم القرآن . خلق

الانسان . علمه البيان »(١٨) . وقال عن حسن كلامهم وشدة اسره وتاثيره في النفوس : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » (١٩) .

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب عرفوا كثيرا من الاحكام النقدية والقضايا البلاغية قبل الاسلام بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن انكاره ، وهو انه لا يصدّق ان الشعر وصل الى ما وصل اليه في ذلك العصر ، وان الخطابة بلغت ذروتها ، وان اللغة اخذت صورتها ، من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك ، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا او قالوا . ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوا العرب بالفطنة والذكاء ، فان العقل لينكر ان يكون ما كان من غير ثقافة ودربة ، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح امامهم سبل القول .

وقد تكون المصطلحات البلاغية والنقدية غير معروفة في ذلك العصر ؛ لكن الفنون البلاغية التي وردت في الشعر تشهد ان العرب كانوا يعرفون الاساليب المختلفة والصور المتعددة التي تزيد كلامهم جمالا . فمن الاستعارة قول امريء القيس :

وليل كموج البحر ارخى سدوله

علي بانواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه

واردف اعجازا وناء بكلكل

والليل لا صلب له ولا عجز ، ولكن الشاعر استعار له ذلك من الكائن الحي . ومثل ذلك من الاستعارة قول النابغة الذبياني :

وصدر اراح الليل عازب همه

تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وهذا مستعار من اراحة الراعي الابل الى الموضع الذي تاوي اليه .

ومن الجناس قول امرىء القيس :

لقد طمح الطماح من بعد ارضه

ليلبسني من دائه ما تلبسا

فالجناس في « طمح » و « الطماح » وفي «ليلبسني» و « تلبسا » .

ومن الطباق قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

والطباق في « مكر » و « مفر » وفي « مقبل » و « مدبر » :

ومن رد العجز على الصدر قول امرئ القيس :

اذا المرء لم يخزن عليه لسانه
فليس على شيء سواه بخزان

فقوله : « يخزن » و « خزان » من رد العجز على الصدر .

ومن المذهب الكلامي قول زهير بن ابي سلمى :

وما يك من خير اتوه فانما
توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطي الا وشيجه
وتنبت الا في منابتها النخل

وقول النابغة الذبياني يعتذر الى النعمان بن المنذر :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي اغش واكذب

ولكنني كنت امرء لي جانب
من الارض فيه مستراد ومذهب

ملوك واخوان اذا ما اتيتهم
احكم في أموالهم واقرب
كفعلك في قوم اراك اصطفيتهم
فلم ترهم في مدح ذلك اذنبوا

ومن الالتفات قول امرىء القيس :

تطاول ليلك بالاثمد
ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة
كليلة ذي العائر الارمد
وذلك من نبا جاءني
وخبرته عن ابي الاسود

ومن تاكيد المدح بما يشبه الذم قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

ومن التشبيه قول امرىء القيس :

ومشدودة السك موضونة
تضاءل في الطي كالمبرد
تفيض على المرء اردانها
كفيض الاتي على الجدجد(٢٠)

وقولـــه :

كـأن قلوب الطير رطبـا ويابـــا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

ومن حسن الابتداء قول النابغة الذبياني :

كليني لهـم يا اميمـــة ناصـــب
وليـل اقاســيه بطـيء الكـواكب

ومن لزوم مالا يلزم قول طرفـة :

الـم تـر ان المـال يكســب اهلـه
نضـوحا اذا لـم يعط منـه نوائبه

ارى كل مـــال لا محالـة ذاهبـــا
وانفـله يبقى وإن مات كاسـبه

ومثل هذه الفنون كثير في شعر المتقلمين ، ومعنى ذلك ان الشـعراء كانوا ينزعون منزعا فنيا تعارفوا عليه ، وانهم كانوا يحسـون بما لمثل هذه الفنون من اثـر في الكلام وقيمة في التعبير ، ولن يجيء ذلك الا عن وعـي وادراك وفهم للمعاني المختلفة التي تورثها تلك الالوان البلاغية . وهذا الوعي والفهم يوحيان بان البلاغة معروفة لا بمعناها التعبيري نحـــب وانما بدلالتها الفنية . وهذا ما يؤيد اصـالة هذا الفن عند العرب ، ويقطع ما يثار من شكوك وريب في نشأة البلاغة العربية وتطورها .

الثاني : نقلي ، وهو ما اثر عن العرب وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بانفسهم ، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذي راى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان : « تسمع بالمعيدي لا ان تراه » فقال : « ابيت اللعن ان الرجال لاتكال بالقفزان ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك تستقى ، وانما المرء باصغريه : بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان وان قال قال ببيان »(٢١) .

واستدل الجاحظ من الفاظ « العي » و «البكيء» و « الحصر » و « المفحم » و «الخطل» و « السهب » على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيرا من عيوب الخطابة والبلاغة ، ولو لا ذلك ما ذكروا هذه العيوب (٢٢) ووصف العرب كلامهم في اشعارهم فجعلوها كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي(٢٣) ووصفوا شعراءهم واضفوا عليهم القابا كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والافوه والنابغة . وكان بعض الشعراء يعتني باشعاره وينقحها قبل ان يذيعها بين الناس ، وقد اشتهر زهير بن سلمى بالحوليات ، وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولي المحكك » . وهذا يدل على انهم كانوا يعرفون فنون القول ويفرقون بين الجيد و الرديء ، والحسن والاحسن ، ولولا معرفتهم بذلك ماوقفوا طويلا امام القصائد ينقحونها ، وامام الشعراء يبدون رايهم

يرفعون ويخفضون . وفي كتب الادب والنقد كثير من الاحكام المتصلة بالمعاني واللغة والقوافي ، وهي احكام انكرها بعض المعاصرين(٢٤) ، ولكنها تبقى دليلا — مع ما قيل فيها — على اصالة الامة العربية وفطنة شعرائها في تلك العهود التي لم تكن فيها كتب تعلم الفصاحة وفن القـول .

ان العرب قبل الاســلام عرفوا كثيرا من الاحكام النقدية والبلاغية ، وحينمـا نزل القرآن الكريـم كـان نزوله حدثا بلاغيا عظيما ، وكان ايمـان العربي واعتناقه الاسـلام حكما نقديا ادركه بذوقه السليم ونظرته الصائبة وخبرتـه الطويلة . واضفت احاديث الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — على العرب بلاغة جديدة ، وكانوا يرددون قولـه — عيلـه الســلام — : « ان من البيـان لسحرا » وكان الخلفاء الراشدون والصحابة يستمعون الى الشعر ويبدون رايهم فيه ، وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يقول عن زهير بن ابي ســلمى انـه « لايتبـع حوشي الكلام » وانــه « كان لايعاظـل بين الكلام »(٢٥) .

وازدهرت الحياة الادبية في العصر الاموي ، وكان الخلفاء يعقدون المجالس ويستمعون الى الشعراءويعلقون على بعض ما يسمعونه ، من ذلك ان عبيد الله بن قيس الرقيات انشد عبد الملك بن مروان قصيدته التي يقـول فيهـا :

يأتلـق التـــاج فـوق مفرقـه
على جبـــين كأنـــه الذهــب

فلما سمع عبدالملك ذلك غضب وقال له : قد قلت في مصعب بن الزبير :

انمــا مصعب شـــهاب من اللــ
ــه تجلت عــن وجهــه الظلمــاء

فأعطيتــه المــدح بكشــف الغمــم وجــلاء الظلم ، وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه ؛ وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضــارة (٢٦) وهــذه الملاحظة الدقيقة الهمت قدامة بن جعفر فكرة ان المديح ينبغي ان يكون بالفضــائل النفســية لا بأوصاف الجســم وما يتصل بها من الحســـن والزينة والبهــاء . وكان معاوية بن أبي سفيان قد وقف عند البلاغة من قبل وقال لصحار بن عياش العبدي : « ما هـــذه البلاغــة التي فيكم ؟ » . قال : « شيء تجيش به صدورنا نتقذفه على ألسنتنا » . وقال له معاوية : « ماتعدون البلاغـــة فيكم ؟ » قال : « الايجاز » . قال له معاويــة : « وما الايجاز ؟ » قـــال : « أن تجيب فــلا تبطيء وتقول فــلا تخطيء » (٢٧) .

وشهد القرن الثاني للهجرة حركة ادبية واســعة وكانت الحواضر تتمخض عن نهضة علمية كبيرة ، ورأى هذا القرن كثيرا من تعريفات البلاغة مــن ذلك قـــول

الخليل بن احمد الفراهيدي : « كل ما ادى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فان استطعت ان يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لاوله مشابها وموارده لمصادره موازنا فافعل (٢٨) » وقوله : « البلاغة كلمة تكشف عن البقية(٢٩) » وقوله انها « ما قرب طرفاه وبعد منتهاه(٣٠) » . وبدات الكتب تظهر ومن ذلك كتاب « المعاني » لمؤرج السدوسي وكتاب « الفصاحة » لابي حاتم السجستاني . وبلغت حركة التدوين والتاليف ذروتها في القرنين الثالث والرابع وظهرت كتب التفسير واللغة والادب تحمل في صفحاتها بذور البحث البلاغي الذي استقل منذ عهد مبكر واصبحت البلاغة علما من علوم اللسان .

[illegible]

(٢)

الأهداف

ان الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد أن خرجوا من جزيرتهم دفعتهم الى العناية باللغة والادب وايامهم ، لانهم وجدوا تحديات كثيرة تعرضت لها اللغة العربية بعد ان دخل في الاسلام قوم ارادوا هدمها وتقويض دولة العرب . وكانت الجهود العظيمة التي بذلها المخلصون ايذانا بظهور علوم اللغة التي أخذت تتطور جيلا بعد جيل حتى أصبحت سامقة لاتقدر عليها هوج الاعاصير .

وقد تظافرت أسباب واهداف كثيرة دفعت العرب الى الخوض في الدراسات البلاغية ، ويمكن تلخيصها في ثلاثة :

الاول : الهدف الديني ، وهو خدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدى الانس والجن . ولكي يبرهنوا على اعجازه ويفهموا آياته واسلوبه ليستنبطوا الاحكام منه ، اتجهوا الى البلاغة باحثين فنونها موضحين اقسامها لتكون لهم عونا في فهم القرآن . وكان هذا من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتاليف فيها ، وقد أشار أبو هلال العسكري الى هذا الهدف السامي

بقوله : « اعلم ـ علمك الله الخير ودلك عليه وقيضه لك وجعلك من اهله ـ ان احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جل ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله الناطق بالحق ، الهادي الى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق واقامت منار الدين ، وازالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها . وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم العربية واخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التاليف وبراعة التركيب ، وما شحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها ، الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها . وانما يعرف اعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء الفاظه . وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به ، والقاريء المهتدى بهديه ، والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب والقرشي الصريح ان لايعرف اعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ الا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي ، او ان يستدل عليه بما استدل به

الجاهل الغبي . فينبغي من هذه الجهة ان يتقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ــ تعالى ــ ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده اذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه »(١) .

ان هذا الربط الوثيق بين كتاب الله وعلم البلاغة يشير الى ما لهذا العلم من اهمية في فهم القرآن الكريم والوقوف على اسراره واستنباط الاحكام منه ، بعد ان تفشى اللحن في العربية وجنحت اللغة نحو الضعف ، وترنقت بالعجمة في البلدان التي دخلها العرب ومعهم نور الله . ولكن ابا هلال العسكري يبالغ في معرفة هذا العلم ، فهو ليس « احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه » وان كان من احق العلوم ، لان هناك علوما اخرى اولى من هذا العلم وهو الحديث النبوي الشريف واحكام الشريعة التي بها يصان المجتمع ويحيا الناس حياة حرة كريمة . ان ابا هلال ــ مع هذه المبالغة ــ يلمح الى اهمية علم البلاغة ويربطه بكتاب العربية الاكبر القرآن الكريم ، وفي ذلك اشارة الى الهدف الاول الذي سعى الباحثون الى تحقيقه حينما شرعوا يؤلفون في البلاغة ويضمون ابوابها وفصولها .

الثاني : الهدف التعليمي ، وهو تعليم الناشئة اللغة العربية ومعرفة اساليبها بعد ان اتصل العرب بامم شتى ، وادى ذلك الاتصال الى فساد اللغة ودخول اللحن فيها . يضاف الى ذلك ان كثيرا من المسلمين كانوا بحاجة

الى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا كتاب الله ، وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية ودستورها القرآن . وكانت المقدرة الكتابية في كثير من الاحيان السبيل الموصل الى المناصب الرفيعة ، وكان على من يسمى الى تسنمها ان يكون كاتبا له في الادب وفنونه يد طولى وله اسلوب رفيع . وقد نال آل وهب وغيرهم في العصر العباسي بفضل الكتابة ارفع المناصب وتقلدوا الوزارة وتدبير الدولة ، وتسنم ضياء الدين بن الاثير الوزارة في عهد بني أيوب . فلكي يتعلم العربي الناشيء — في بيئة امتزجت فيها اللغات — لغته العربية ويصبح قادرا على التعبير الحسن والنظم الرائق وانشاء الرسائل البديعة ، ولكي يتعلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها ، ولكي يصل الناس الى ارقى المناصب وأعلى الرتب — كان عليهم جميعا أن يتقنوا العربية . ولا يتم ذلك الاتقان الا بمعرفة الفاظها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها ، والبلاغة احدى تلك السبل التي توصل الى هذه الغاية وتخدمها .

إن الغرض التعليمي كان من أهم تلك الاهداف التي دفعت الباحثين الى العناية بالبلاغة بعد أن ابتعد العرب عن جزيرتهم وفسدت لغة بعضهم لمجاورة الاعاجم او الحياة بين ظهرانيهم . وكان هذا السبب من الدوافع التي جعلت العرب يفكرون في جمع تراثهم وتدوينه ووضع القواعد والاصول التي تحفظ ذلك التراث وتجعل العرب

مرتبطين به ارتباطا وثيقا .

الثالث : الهدف النقدي ، وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل . والبلاغة تعين الناقد كثيرا لانها تقدم له الآلة التي تهيىء له الفهم والحكم ، ولذلك اعتنى القدماء عناية كبيرة بها والفوا الكتب فيها . وقد اشار أبو هلال العسكري الى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله : « ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها ان صاحب العربية اذا اخل بطلبه وفرط في التماسه فاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته ، عفى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله ، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد واخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد بان جهله وظهر نقصه . وهو ايضا اذا اراد ان يصنع قصيدة أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل كما فعل ابن جحدر في قوله :

حلفت بما ارقلت حوله
همرجلة خلقها شيظم
وما شبرقت من تنوفية
بها من وحى الجن زيزيم(٢)

وانشده ابن الاعرابي فقال : « إن كنت كاذبا فالله حسبك » . وكما ترجم بعضهم كتابه الى بعض الرؤساء :

« مكركسة تربوتا ومحبوسة بسريتا » فدلّ على سخافة عقله واستحكام جهله ، وضرّه الغريب الذي اتقنه ولم ينفعه ، وحطّه ولم يرفعه ، لما فاته هـذا العلم وتخلف عن هـذا الفن . واذا اراد ايضا تصنيف كلام منثور او تأليف شعر منظوم ، وتخطى هـذا العلم ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه ، فاخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول ، فـدلّ على تصـور فهمـه وتاخر معرفتـه وعلمـه » (٢) .

فابو هلال يشير الى الهدفين التعليمي والنقدي ويضع البلاغة في اول الطرق التي ينبغي ان يسلكها كل متعلم او من يريد ان ينظم قصيدة او يكتب رسالة ، او من يريد ان يوازن بين الكلام فيعرف جيده من رديئه واحسنه من حسنه .

ويتصل بالهدف النقدي رواية الادب ومعرفة الجيد الذي يروى والرديء الذي ينبغي ان يطرح . وقد اشار ابو هلال الى ذلك بقوله : « وقد قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله كما ان شعره قطعة من علمه . وما اكثر من وقع من علماء العربية في هذه الرذيلة ، منهم الاصمعي في اختياره قصيدة المرقش

هـل بالـديار ان تجيـب صـمم
لـو أن حيـًا ناطقـا كلـم

ولا اعرف على اي وجه صرف اختياره اليها ، وما هي بمستقيمة الوزن ولا مونقة الروي ولا سلسة اللفظ ، ولا جيدة السبك ، ولا متلائمة النسج . وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه ، وهذا خطا من الاختيار ، لان الغريب لم يكثر في كلام إلا انده ، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف »(٤) .

فاختيار النصوص الحسنة لا يتيسر لمن لم يدرس البلاغة ويقف على فنونها واساليبها ، ولا تغني معرفة اللغة او النحو ، لانهما لا يلمحان الى روعة الصياغة وجودة المعنى وشدة الاسر كما تلمح اليه البلاغة وتشير الى مواطن الروعة والجمال فيه . ولذلك كان الناس يدرسون هذا العلم ليضعوا ايديهم على النصوص الجيدة ويتذوقوها ويحسنوا اختيار الروائع منها . فالبلاغة لتاليف النظم والنثر ونقدهما واختيار الحسن الجيد منهما « بمنزلة اصول الفقه للاحكام وادلة الاحكام »(٥) كما قال ضياءالدين بن الاثير وهو يتحدث عن علم البيان .

كانت هذه الاهداف وغيرها دافعا قويا حفز العرب والمسلمين للخوض في دراسة البلاغة والتاليف فيها ، وكانت هذه الاهداف غرض المؤلفين جميعا ، ولا يكاد كتاب من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليها . ولعل ما ذكره ابو هلال العسكري في « كتاب الصناعتين » يوضح الغرض ويخدم الفكرة ويمين على

تصور الدوافع التي كان لها الفضل الكبير في ظهور كتب البلاغة والنقد .

وقد تظافرت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ويتضح ذلك في آثار المفسرين والاصوليين ، واللغويين والنحاة ، والشعراء والكتاب ، والفلاسفة والمتكلمين .

(٣)

المؤثرات

لم يظهر البحث البلاغي فجأة وانما كانت له جذور امتدت الى عهد مبكر ، ولعلها امتدت الى ما قبل الإسلام ولكن ما وصل من اخبار يشير الى ان البذور الاولى ظهرت حينما نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، وحينما كان الرسول العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشيد بالشعر المؤثر ويقول : « ان من البيان لسحرا » ويتحدث باعذب الكلام وأبلغه ويدعو الى تجنب الالفاظ الموحية بما لا يحسن كقوله : « لا يقولن احدكم : « خبثت نفسي » ولكن ليقل : « لقست » كراهية ان يضيف المسلم الخبث الى نفسه (١) . وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يدعو الى تجنب حوشي الكلام وغريبه ، ويحث على ترك المعاظلة ويقول عن زهير انه « لا يعاظل بين الكلام » (٢) . وكان علي بن ابي طالب ـ كرم الله وجهه ـ يبدع في الكلام ويأتي بنهج البلاغة وروائع البيان .

ولم تصل البلاغة الى ذروة نضجها لولا تظافر عدة عوامل وجهتها ولونت مناهجها بالوان مختلفة .

واهم المؤثرات التي رفدت البحث البلاغي خلال القرون السبعة الاولى بعد الهجرة المحمدية هي :

الاول : المفسرون والاصوليون ، وكان ذلك من اثر القرآن الكريم الذي نزل حجة بلاغية كبرى ومعجزة ادبية عظمى وقف العرب امامها مبهورين . وشغل الناس بكتاب الله واخذوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن الفاظه وتراكيبه وما فيه من فنون القول . وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها احق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله — جل ثناؤه — . وذهبوا ابعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد انها « ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك بمواقع رشدك وعواقب غيك »(٣).

وكان تاثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع ، وكانت احدى آياته مدعاة الى أن يؤلف ابو عبيدة كتابه « مجاز القرآن » . وانتهى ابن خلدون الى أن ثمرة علم البلاغة « انما هي في فهم الاعجاز من القرآن ، لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها . وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام من ادراكه » (٤) .

وكان لمسالة الاعجاز اثر كبير في تطور البلاغة العربية ، وكان المتكلمون اول من بحثوا في اعجاز القرآن وبلاغته ، وقالت المعتزلة — الا النظام وهشاما القوطي

وعباد بن سليمان : « تاليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة احياء الموتى منهم وانه علم لرسول الله » . وقال النظام : « الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التاليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم » . وقال هشام وعباد : « لا نقول ان شيئا من الاعراض يدل على الله — سبحانه وتعالى — ولا نقول أيضا ان عرضا يدل على نبوة النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يجعلا القرآن علما للنبي — صلى الله عليه وسلم — وزعما ان القرآن اعراض » (٥) .

واختلفت وجهات النظر في الاعجاز ، وتشعبت سبل القول ، لان الوصول الى ذلك صعب وتحديد وجوه البلاغة في القرآن اصعب . ولكن لم يثنهم ذلك عن عزمهم ومضوا يتلمسون بلاغته ويبينون أعجازه ؛ فكانت دراساتهم احسن مصدر للبلاغة واجل مورد لمن اراد ان يتذوق القرآن ويفهم البيان . ومن اشهر الذين عنوا بالاعجاز وبلاغة القرآن ابو عبدالله محمد بن يزيد الواسطي صاحب كتاب «اعجاز القرآن في نظمه وتاليفه» ولم يصل هذا الكتاب او شرحاه لعبدالقاهر الجرجاني . ومنهم ابو الحسن علي بن عيسى الرماني صاحب رسالة « النكت في اعجاز القرآن » الذي ذهب الى ان كتاب الله معجز ببلاغته وهو اعلى طبقات الكلام ، وبحث

البلاغة التي عدها عشرة أقسام هي : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ؛ ومنهم ابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي مؤلف رسالة « بيان اعجاز القرآن » الذي راى ان البلاغة ترجع الى جمال الفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه وتاثيره في النفوس ، والى صنيعه في القلوب وتاثيره العظيم . ومنهم ابو بكر محمد ابن الطيب الباقلاني صاحب كتاب « اعجاز القرآن » الذي ذهب الى ان كتاب الله معجز لانه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ولذلك راى ان البديع ليس من الوجوه التي يعلل بها الاعجاز . ومنهم القاضي ابو الحسن عبدالجبار الاسد آبادي الذي افرد الجزء السادس عشر من كتابه « المغني في ابواب التوحيد والعدل » للكلام على اعجاز القرآن وذهب الى انه معجز بالنظم ، وهي الفكرة التي بنى عليها عبدالقاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز » (٦) .

وكان للمفسرين دور كبير في نشاة البلاغة العربية وتطورها ، وكانت احدى الوسائل في كشف اسرار الاعجاز وتبيان ما في الآيات البينات من روعة وجمال . وقد وضع المفسرون لكتبهم مقدمات بلاغية تحدثوا فيها عن البلاغة وفنونها ونبهوا الى اهمية ذلك فقال الطبري في مقدمة تفسيره : « بيد ان الرسول عربي ،

وان القرآن نزل بلسانه ، فالواجب ان تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاني كلام العرب موافقة ، وظاهره لظاهر كلامهم ملائما . فاذا كان ذلك كذلك فبين اذ كان موجودا في كلام العرب الايجاز والاختصار ، والاجتزاء من الاخفاء بالاظهار ، وبالقلة من الاكثار في بعض الاحوال ، واستعمال الاطالة والاكثار والترداد والتكرار ، واظهار لمعاني كلام العرب موافقة ، وظاهره لظاهر كلامهم الاوقات والخبر عن الخاص في المراد بالعام ، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر ، وعن الكناية والمراد منه المصرح ، وعن الصفة والمراد الموصوف ، وعن الموصوف والمراد الصفة ، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر ، وتأخير ما هو في المعنى مقدم ، والاكتفاء ببعض من بعض وبما يظهر عما يحذف واظهار ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك في كل ذلك له نظيرا وله مثلا وشبيها . ونحن مبينو جميع ذلك في اماكنه ان شاء الله ذلك وامد منه بعون »(٧) . وقال جار الله الزمخشري في مقدمة تفسيره : « ان املأ العلوم بما يغمر القرائح ، وانهضها بما يبهر الالباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات اسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه واجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » . فالفقيه وان برز

على الاقران في علم الفتاوى والاحكام ، والمتكلم وان بزّ اهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والاخبار وان كان من ابن القرية احفظ ، والواعظ وان كان من الحسن البصري اوعظ ، والنحوي وان كان انحى من سيبويه ، واللغوي وان علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى احد منهم لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان ، وتمهّل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما ازمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله »(٨) .

وتفسير الزمخشري من اكثر كتب التفسير اعتمادا على فنون البلاغة ، وقد فتح الطريق للمفسرين والبلاغيين ، واصبحت كتب البلاغة سبيلا تفضي الى رحاب القرآن ومعالم يهتدي بها الدارسون ، ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة ولمحات بديعة المفسرون . ولذلك كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره وادراك فصاحته وبلاغته ، وصار الشيوخ لا يقدمون على تدريس كتب التفسير الا بعد ان يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي حينما الف كتابه « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ليكون عونا لمن شرع في قراءة تفسير « الكشاف » عليه ، قال : « ثم ان الباعث على تاليف هذا الكتاب هو ان جماعة

من الاخوان شرعوا عليّ في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فانه اسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل وعرف من اجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التاويل ، وتحققوا انه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن الا بادراكه والوقوف على اسراره واغواره . ومن اجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لاني لم اعلم تفسيرا مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواه ، فسالني بعضهم ان املي فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق » (٩) .

واثر الاصوليون والفقهاء في البلاغة ، وفي كتب اصول الفقه بحوث مستفيضة عن الخبر والانشاء ، والحقيقة والمجاز ، وهي بحوث تدل على استئثار علم الاصول بها . قال السكاكي : « بل تصفح معظم ابواب اصول الفقه من اي علم هي ؟ ومن يتولاها ؟ »(١٠) واشار بهاء الدين السبكي الى الصلة الوثيقة بين علمي المعاني واصول الفقه فقال : « واعلم أنّ علمي اصول الفقه والمعاني في غاية التداخل ، فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول ، وان كل ما يتكلم عليه الاصولي من كون الامر للوجوب والنهي للتحريم ، ومسائل الاخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجيح — كلها ترجع الى موضوع علم المعاني . وليس في اصول

الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره الا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة »(١١) . ويرى ابن خلدون ان معرفة اركان علوم اللسان وهي : اللغة والنحو والبيان والادب « ضرورية على اهل الشريعة اذ ماخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي لغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن اراد علم الشريعة »(١٢) . وممن كانت لهم مشاركات بلاغية في كتبهم الاصولية الامام محمد بن ادريس الشافعي صاحب « الرسالة » و « الام » وابو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي صاحب كتاب « المعتمد في اصول الفقه » ، والامام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي مؤلف كتاب « المستصفى من علوم الاصول » ، وابو الحسن علي بن ابي علي سيف الدين الآمدي صاحب كتاب « الاحكام في اصول الاحكام » . ومن الفقهاء الذين شاركوا في البحث البلاغي عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام صاحب كتاب « الاشارة الى الايجاز في بعض انواع المجاز » ، وشمس الدين ابو عبدالله محمد المعروف بابن قيم الجوزية مؤلف كتاب « الفوائد ـ المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان » .

ان اهتمام علماء اصول الفقه والفقهاء بالمباحث البلاغية التي وشحوا بها كتبهم او الفوا فيها وعدوها من طرق الفقه واصوله ، دفع البلاغيين الى وضع القواعد

الواضحة والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم اليها في استنباط الاصول والاحكام(١٣) .

الثاني : اللغويون والنحاة ، وكان للغويين يد طولى في نشأة البلاغة وتطورها ، وقد ظل دورهم مشهودا منذ عهد التدوين ، واستطاعوا ان يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ويردوا المحدثين وما ذهبوا اليه . واخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين مستفيضة ، من ذلك ان ابن ابي اسحاق اعترض على الفرزدق لرفع « مجلف » في قوله :

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدع
من الناس الاّ مُسحتا او مجلّفُ

فقال : « علام رفعت « مجلف » ؟ فردّ الفرزدق : « على ما يسوؤك وينوؤك ، علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا » . وان ابن ابي اسحاق قال للفرزدق ايضا : انك اسأت في قولك :

مستقبلين شمال الشام تضربهم
بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا تلقى وارحلنا
على زواحف تزجى مخّها رير

وانما هو «ريرٌ» وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » . وكان يكثر الردّ عليه حتى قال فيه :

فلو كان عبدالله مولى هجوته
ولكنّ عبدالله مولى مواليا

فردّ عليه قائلا : انها « مولى موال »(١٤) . وكان الخليل بن احمد الفراهيدي يقول لابن مناذر : « انما انتم معشر الشعراء تبع لي وانا سكان السفينة ان قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم والاّ كسدتم » . فقال ابن مناذر : « والله لاقولنّ في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا احتاج اليك فيها عنده ولا الى غيرك »(١٥) . وكان الشعراء يستهينون بالنحاة ولا يقبلون احكامهم ، قال ابو احمد العسكري : « اخبرنا ابو بكر محمد بن يحيى قال : حدثني علي بن العباس قال : رآني البحتري ومعي دفتر فقال : ما هذا ؟ فقلت : شعر الشنفرى . قال : والى اين تمضي ؟ قلت : اقرؤه على ابي العباس احمد بن يحيى . قال : رايت ابا عباسكم هذا منذ ايام فلم ار له علما بالشعر مرضيا ولا نقدا له ، ورايته ينشد ابياتا صالحة ويعيدها الا انها لا تستوجب الترديد والاعجاب بها » (١٦) . ووقف بعض البلاغيين بوجه اللغويين والنحاة ايضا وسخروا منهم كابن الاثير الذي قال وهو يتحدث عن ابن جني .. « لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب » (١٧) .

ان هذا الصراع بين اللغويين والنحاة والشعراء افاد الادب ودفع الجميع الى البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السديدة . واذا كان موقف الشعراء

يتسم بالمغالاة ، فان اللغويين والنحاة اثروا في نشأة البلاغة وتطويرها ، وكانت لهم وقفات محمودة والتفاتات بارعة اغنت كتب البلاغة . ومن أقدم الذين اهتموا باللغة وشواردها والنظر في الشعر ابو عبيدة معمر بن المثنى الذي ذكر كثيرا من اصول البلاغة ومصطلحاتها في كتابيه « مجاز القرآن » و « النقائض » ، وابو سعيد عبدالملك بن قريب الاصمعي ، الذي ذكر بعض مسائل البلاغة والنقد في كتابه « فحولة الشعراء » ونثر آراءه البلاغية وبعض مصطلحاتها في مجالسه ونقلها عنه البلاغيون والنقاد . ومنهم ابو العباس محمد بن يزيد المبرد الذي تحدث عن بعض قضايا البلاغة في كتابه « الكامل » وافاض الكلام على التشبيه واقسامه ، وابو الحسين احمد بن فارس الذي كان كتابه « الصاحبي » من أهم الدراسات اللغوية التي عنيت بالبلاغة واقسامها ومصطلحاتها ، ويعدّ فصل « معاني الكلام » من اهم الفصول التي اثرت في دراسة علم المعاني .

ومن النحاة الذين كانت لهم مشاركات بلاغية ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه ، فقد تحدث في كتابه المعروف عن الاساليب العربية وتعرض لبعض فنون البيان . ومنهم ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء الذي كان كتابه « معاني القرآن » دراسة اسلوبية لآيات الكتاب وموردا عذبا لمن يريد أن يبحث في أصول البلاغة العربية واصالتها . ومنهم ابو العباس أحمد بن

يحيى المعروف بثعلب ، ويعد كتابه « قواعد الشعر » من اوائل الكتب البلاغية والنقدية ذات الصبغة العلمية في ترتيب الموضوعات والكلام عليها ، وكان هذا الكتاب الصغير قبا استضاء به ابن المعتز في كتابه « البديع » الذي ادعى فيه انه لم يسبق اليه ، مع ان استاذه ثعلبا سبقه الى ذكر مصطلحات البلاغة والتعريف بها وذكر الامثلة . ولكن اهم نحوي اثر في البلاغة العربية هو عبدالقاهر الجرجاني صاحب « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » ، وهذان الكتابان هما زبدة البلاغة العربية واساس البحث فيها ، وكانت نظرية النظم التي ارسى عبدالقاهر قواعدها اعظم ما وصل اليه العرب القدماء ، وهي نظرية ظهر مثلها في الغرب خلال هذا القرن وزخر العالم بمؤلفاتها البنيوية في العلوم المختلفة . وقد اثر عبدالقاهر في البلاغة وبنى الزمخشري تفسيره على آرائه ، واعتمد الرازي عليه في كتابه « نهاية الايجاز » وبنى كمال‌الدين عبدالواحد بن عبدالكريم السماكي المعروف بابن الزملكاني كتابيه « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » و « البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن » على كتابي عبدالقاهر (١٨) .

الثالث : الشعراء والكتاب ، وكان الشعراء منذ الجاهلية يعنون بالقول ويجودون اشعارهم وينقحونها ، وقد دلت الملاحظات البيانية على انهم كانوا اصحاب ذوق رفيع ومعرفة واسعة بجيد الشعر ورديئه وحسنه

واحسنه . ونما شعورهم وذوقهم حينما تقدم بهم الزمن وكثرت ملاحظاتهم حتى اذا ما جاء العصر العباسي ودخل العرب حياة جديدة تطورت نظرتهم الى الشعر وتوسع ادراكهم لما فيه من روعة وجمال او تصنع وطبع . وفي كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني ان بشار بن برد كان ينقد الشعر ويشير الى جيده ورديئه ، وقد انشد قول الشاعر :

وقد جعل الاعداء ينتقصوننا
وتطمع فينا السن وعيون
الا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا غمزوها بالاكف تلين

فقال : ولله لو زعم انها عصا مخ او عصا زبد لقد كان جعلها جافية خشنة بعد ان جعلها عصا ، الا قال كما قلت :

ودعجاء المحاجر من معد
كأنّ حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لشيتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

وقال : « لم ازل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

اعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا
واسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١٩)

وفي كتب الادب كثير من هذه الاحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر العباسي وتوجيههم النقد والبيان ، قال ابن المعتز : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتادبين منهم ، فاما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو »(٢٠) . وقال ابن رشيق : « اهل صناعة الشعر ابصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم او كانوا منهم بسبب ؟ وقد كان ابو عمرو بن العلاء واصحابه لا يجرون مع خلف الاحمر حلبة هذه الصناعة ، اعني النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها»(٢١) . وكان الشعراء ينقدون شعرهم ويتفقدونه قبل ان يعرضوه على الناس ، وكان أبو نواس ينظم القصيدة ثم يتركها أياما ثم يعرضها على نفسه فيسقط منها ويترك صافيها ولا يسرّه كل ما يقذف خاطره(٢٢) . وكان مسلم بن الوليد يبطيء في صنعته ويجيدها ولذلك قالوا عنه : « انه زهير المولدين » (٢٣) اي انه كان ينقح شعره ويجوّده ويعنى بالصنعة فيه .

ومن الشعراء الذين كان لهم دور كبير في نشأة البلاغة عبدالله بن المعتز صاحب كتاب « البديع » الذي كان خطوة كبيرة خطتها البلاغة . وقد وضعه ردا على من يزعم ان المولدين نتحوا باب البديع ، قال : « وقد قدّمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا ومسلما وابا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودلّ عليه » (٢٤) وقال : « غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع »(٢٥) وفي ذلك تاكيد لاصالة البلاغة العربية ونشوئها في رحاب الامة العربية . وتتضح في كتاب « البديع » الدقة في التقسيم ، فقد اقامه على نوعين من الفنون سمّى الاول البديع وهو : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي ، وهي الفنون التي ثارت حولها الخصومة بين الشعراء والنقاد . وسمى الثاني محاسن الكلام وهي : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتاكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية،

والافراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم، وحسن الابتداء . وكانت هذه الفنون التي ذكرها ابن المعتز في القسمين عمدة البلاغيين والنقاد فقد استند اليها قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » وابن ابي الاصبع المصري في كتابيه « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » واضافا اليهما الوانا جديدة ، وفعل مثلهما البلاغيون والنقاد الاخرون .

والف الشريف الرضي كتابين في البيان هما : « تلخيص البيان في مجازات القران » و « المجازات النبوية » وهما كتابان في المجاز بمعناه الواسع . ومن الشعراء الذين الفوا في البلاغة والنقد ابو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الذي ترك كتابين مهمين هما « العمدة » و « قراضة الذهب » والاول من احسن كتب البلاغة المعتمدة على الذوق والنقد السليم . ومنهم ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي صاحب « سر الفصاحة » وقد تحدث فيه عن فنون البلاغة غير ان دراسته للكلمة المفردة والكلام المركب يعتد من اوسع ما عرفته البلاغة القديمة . والكتاب من انفس كتب البلاغة والنقد في القرن الخامس للهجرة لانه جمع بين التعليل والتحليل والعلم والذوق . وقد كان الدافع الى تاليفه اختلاف الناس في ماهية الفصاحة وحقيقتها وقد اراد ابن سنان ان يجلوها ويعرضها عرضا حسنا ، لانه يؤمن بان للفصاحة اثرا عظيما في نظم الكلام على

اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه وما يكره ، وكلا الامرين متعلق بالفصاحة بل هو مقصور على المعرفة بها فلا غنى لمنتحل الادب عن دراسة الفصاحة على النحو الذي ذكره في الكتاب . وكانت الشروط التي وضعها للفصاحة عمدة البلاغيين المتأخرين ولاسيما الخطيب القزويني وشرّاح تلخيصه ، وهي شروط اوقفت دراسة الالفاظ واحالتها قواعد ثابتة ليس فيها للذوق دور كبير .

ومن الشعراء ابو المظفر اسامة بن منقذ الذي جمع في كتابه « البديع في نقد الشعر » خمسة وتسعين نوعا من فنون البلاغة . ومنهم ابو محمد زكي الدين عبدالعظيم المعروف بابن ابي الاصبع العدواني المصري ، وله كتابان مهمان هما : « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » وقد اودع فيهما اكثر من مائة لون بلاغي درسها باسلوب أدبي بديع ، وحلل ، الامثلة تحليلا فنيا يشهد له بالقدرة على التأليف الحسن والتمتع بذوق الشاعر المرهف (٢٦) .

وكان للكتاب اثر واضح في البلاغة فقد صبغوا كثيرا من بحوثها بصبغة ادبية لما امتازوا به من ادب رفيع وذوق سليم . وهم الذين قال الجاحظ عنهم : « اما انا فلم ارَ قط امثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا »(٢٧) . وقال : « وقد جلست الى ابي عبيدة الاصمعي ويحيى بن نجيم وابي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رايت

أحدا منهم قصد الى شعر في الشيب فانشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله . ولم أرَ غاية النحويين الا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، ورايت عامتهم ـ فقد طالت مشاهدتي لهم ـ لا يقفون الا على الالفاظ المتخيرة والمعاني المتخبة ، وعلى الالفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مدافن الالفاظ واشارت الى حسان المعاني : ورايت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب اعم وعلى السنة حذاق الشعراء أظهر . ولقد رايت ابا عمرو الشيباني يكتب اشعارا من افواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر ، وربما خيل الي ان ابناء اولئك الشعراء لا يستطيعون ابدا ان يقولوا شعرا جيدا لمكان اعراقهم من اولئك الاباء . ولولا ان اكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك في هذا الكتاب ما سمعت من ابي عبيدة ومن هو ابعد في وهمك من ابي عبيدة » (٢٨) . وقال ـ فيما لخصه ابن رشيق ـ : « طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا يتقن الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن وهب

ومحمد بن عبدالملك الزيات »(٢٩) وقال ابن رشيق : « الكتاب ارق الناس في الشعر طبعا ، واملحهم تصنيفا ، واحلاهم الفاظا ، والطفهم معاني ، واقدرهم على تصرف ، وابعدهم من تكلف . وقد قيل : الكتاب دهاقين الكلام »(٣٠) .

واخذت الكتابة مكانة مرموقة منذ العصر الاموي ، وكان عبدالحميد الكاتب ممن انتهت اليهم رياسة الكتابة في ذلك العهد . وقد اثر في الكتابة وكانت له آراء تجلت في آثار ابن المقفع وسهل بن هارون وجعفر بن يحيى وكلثوم بن عمرو العتابي وغيرهم من كتاب العصر العباسي ولكن اشهر الكتاب الذين اثروا في البلاغة ابو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ الذي نثر كثيرا من مصطلحات البلاغة وفنونها في كتبه ورسائله ولا سيما « البيان والتبيين » و « الحيوان » . ويعد الجاحظ احد مؤسسي علم البيان وباني اركانه لما جمع في كتبه من اقوال في البلاغة والفصاحة وابدى من آراء فيهما . وكان لما ذكره اثر في الكتاب الذين جاءوا بعده كقدامة بن جعفر الذي جمع في كتابه « نقد الشعر » كثيرا من موضوعات البلاغة ، وابن وهب الكاتب الذي تحدث في البيان الثالث من كتابه « البرهان في وجوه البيان » عن بعض مسائل البيان ، وابي هلال العسكري الذي رتب موضوعات البلاغة ترتيبا علميا دقيقا في « كتاب الصناعتين » الذي يعد نقطة تحول النقد ومقاييسه الذوقية الى علم يعتمد على القواعد البلاغية اكثر من اعتماده على الاحساس

الفني . ومنهم ابو القاسم عبدالله بن محمد بن الحسين ابن ناتيا البغدادي الذي تحدث عن فن التشبيه في كتابه « الجمان في تشبيهات القرآن » ؛ وابن شيث القرشي الذي تكلم على كثير من موضوعات البلاغة في كتابه « معالم الكتابة ومغانم الاصابة » . وكان ضياء الدين بن الاثير من اكثر الكتاب اثرا في البلاغة فقد الف عدة كتب فيها ؛ ولكن كتابيه « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » و « الجامع الكبير » من اروع ما الف في هذا الفن . وتتجلى اهمية ابن الاثير البلاغية في انه مارس الكتابة زمنا طويلا وكان من ابرز الكتاب في عهد الدولة الايوبية ؛ وقد انعكست تلك الممارسة في كتبه التي كانت صورة صادقة لموهبته الفنية وقدرته العلمية في العرض والتنسيق . وقد اثار حركة بلاغية ونقدية فكتب ابن ابي الحديد كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » ووضع صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي كتاب «نصرة الثائر على المثل السائر» . ومن الكتاب الذين اثروا في البحث البلاغي شهاب الدين محمود الحلبي صاحب « حسن التوسل الى صناعة الترسل » وقد جمع فيه بين الطريقة العلمية والطريقة العملية ؛ اي انه استفاد من قواعد البلاغة في صناعة الترسل . واستفاد منه القلقشندي ونقل كتابه في الجزء السابع من موسوعته «صبح الاعشى في صناعة الانشاء»(٢١).

ويتصل بالشعراء والكتاب بعض النقاد الذين اثروا في البلاغة كابي الحسن محمد بن احمد بن طباطبا

صاحب « عيار الشعر » ؛ وابي القاسم الحسن بن بشر ابن يحيى الآمدي مؤلف « الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري » ؛ والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » . ويختلف هؤلاء في معالجة قضايا البلاغة عن البلاغيين ، ذلك انهم لم يتخذوا هذا الفن غاية وانما وسيلة لفهم الشعر والوقوف على ما فيه من روعة وجمال(٢٢) .

ويتصل بالشعراء والكتّاب ايضا اصحاب البديعيات الذين نظموا قصائد في مدح الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على غرار البردة للبوصيري وقد ضمنوها فنون البلاغة . ومن اشهرهم صفي الدين الحلي وابن جابر الاندلسي وعزالدين الموصلي وابن حجة الحموي وجلال الدين السيوطي وعائشة الباعونية وابن معصوم المدني وعبدالغني النابلسي . وقد شرح بعضهم بديعيته ، واهم تلك الشروح « خزانة الادب » للحموي و « انوار الربيع في انواع البديع » لابن معصوم(٢٣) .

الرابع : الفلاسفة والمتكلمون وقد كانت البلاغة أحد الميادين التي دخلتها الفلسفة وعلم الكلام ، وأدى الامر الى انتهاء البحث البلاغي الى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها مجالس المناظرة ويقعد لها المحكمون بين سعدالدين التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني حين يتناظران في اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وعدم اجتماعهما وكأنهما يتناظران في مشكل من اصول

القوانين او معضل من مسائل الفلسفة ، وينهزم سعد الدين ويموت كمدا وضحية للفلسفة في البلاغة . وقد كان ذلك بعد ان استوت البلاغة واصبحت علما له قواعده واصوله ومناهجه وكتبه ، وبعد أن ماتت المواهب والملكات ونضب الذوق . اما في عهد ازدهار الادب فقد كان الاتجاه الفلسفي والكلامي يلقى مقاومة عنيفة ، وقد تحدث ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » عن خطر الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية على ناشئة الكتاب وهاجم هذه العلوم ودعا الى الاخذ بالمنهج العربي الاصيل ، وهو منهج يقوم على القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر(٢٤) . وهاجم ابو سعيد السيرافي المنطق في المناظرة التي جرت بينه وبين متّى بن يونس القنائي الفيلسوف في مجلس الوزير ابي الفتح بن جعفر بن الفرات(٢٥) . وامتدح الآمدي في موازنته بين الطائيين طريقة العرب في الشعر ، وصرخ البحتري الشاعر متبرما بالمنطق قائلا :

كلفتمونا حدود منطقكم

في الشعر يكفي عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ

منطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي اشارته

وليس بالهذر طولت خطبه

وثار ضياء الدين بن الاثير على أساليب الفلسفة ورأى في اعيانها من امثال الفارابي وابن سينا رجالا اضلهم ارسطو وافلاطون ، واشار الى حصر اليونان للمعاني الخطابية غير ان ذلك الحصر كلي لا جزئي ، ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها ؛ وليس في ذلك الحصر كبير فائدة(٣٦) .

ولكن الفلسفة وعلم الكلام والمنطق اثرت في البلاغة العربية وتسربت الى مناهجها وحدودها وتقسيماتها وامتلات كتبها بالالفاظ الفلسفية والحدود المنطقية والنزعة الكلامية ، وقد تجلى ذلك بوضوح بعد جنوح الادب الى التقليد وسيطرة النزعة العقلية على مقاييسه البلاغية والنقدية : ولعل فخر الدين الرازي كان من اوائل الذين اتجهوا بالبلاغة وجهة فلسفية وذلك حينما وضع كتابه « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » ؛ وتبعه في ذلك سراج الدين يوسف بن أبي بكر ابو يعقوب السكاكي في كتابه « مفتاح العلوم » الذي افرد القسم الثالث منه للكلام على البلاغة وقسمها الى علمي المعاني والبيان والحق بهما وجوه البديع ؛ وربط البحث البلاغي بالاستدلال وأسرف في الحدود والتقسيمات وضبط القواعد والاقلال من الامثلة . وكان « مفتاح العلوم » ايذانا بتوقف البحث البلاغي ، فقد لخص القسم الثالث منه بدر الدين بن مالك في كتابه « روض الاذهان في علم

البيان » و « المصباح » ، وسار على خطاه الخطيب القزويني في كتابه « التلخيص » الذي أسرف في الايجاز ، واضطر لذلك الى شرحه في « الايضاح » وتوالت الشروح فكان « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » لبهاء الدين السبكي ، و « الشرح المختصر » و « الشرح المطول » لسعدالدين التفتازاني ، و « الشرح الاطول » للاسفرايني و « مواهب الفتاح » لابن يعقوب المغربي ، و «حاشية المختصر» لمحمد بن عرفه الدسوقي . وهذه الشروح تلتقي في منهج واحد وهو منهج يقوم على تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وتتخذ من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام سبيلا لبحث موضوعاتها . وقد ادى ذلك الى أن تبتعد البلاغة من وجهتها التي من اجلها نشات ، واصبحت ميدانا لعرض القضايا العقلية والخلافات الفلسفية ، حتى قيل ان هذه الشروح ضمت كل شيء الا البلاغة .

ومن الذين تاثروا في بحثهم البلاغي بالفلسفة والمنطق يحيى بن حمزة العلوي مؤلف كتاب « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ، وابو عبدالله محمد ابن عمرو التنوخي صاحب « الاقصى القريب في علم البيان » ، ولكن هذين المؤلفين لم يقعا في مسالك الفلسفة كما وقع الاخرون لما لهما من حس ادبي مرهف وذوق يدرك الجمال ، ولولا ذلك لاصبح كتاب العلوي

خاصة معرفـــا النزاع العقلي وعرض الاراء الاعتزاليـة والرود عنها(٢٧) .

وفي البلاغة العربية ظهر مؤلفان استفادا من المنطق الارسطوطاليـي ومن كتب الفلاسفة المسلمين ؛ وهـذان المثالان هما : ابو الحسن حازم القرطاجني صاحب « منهاج البلغاء وسراج الادباء » الذي كان اقرب الى اصول البلاغة او فلسفتها ، وقد جنح فيه مؤلفه الى طريق من النظر الحكمي وتطبيق نظريات ارسطو وآرائه في الادب العربي ، ووضع مصطلحات لم يالفها البحث البلاغي عند العرب مثل « معلم » و « اضاءة » و « تنوير » و « معرف » .

والثاني ابو محمد القاسم السجلماسي صاحب « المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع » الذي عالج الموضوعات البلاغية بطريقة علمية دقيقة ، وذلك بانطلاقه في تحديد كل نوع بلاغي من مصطلحين هما : الموطئ، والفاعل ، ويقصد بالاول المعنى او القاسم المشترك الذي يضم التفريعات اللاحقة المتولدة مباشرة ، ويريد بالثاني القانون العلمي النظري العام الذي يمثل القاسم المشترك بين المصطلحات التي تلتحم في وضعها الفلسفي المنطقي بدلالتها النقدية والبلاغية وفق نظام لغوي محدد وقسم البلاغة الى عشرة اقسام هي : الايجاز ، والتخييل والاشارة ، والمبالغة ، والرصف، والمظاهرة، والتوضيح،

والاتساع ، والانثناء ، والتكرير . وادخل في هذه الاقسام العشرة ما يتصل بها من موضوعات . وهذا التقسيم واسلوب عرضه جديد في البحث البلاغي ، وتبدو فيه النزعة العقلية المتأثرة بالدراسات الفلسفية والمنطقية .

ومن يتصل بهذه العالمين ابن البناء المراكشي صاحب « الروض المريع في صناعة البديع » وليس من السهل معرفة منهجه بدقة لان كتابه لايزال مخطوطا ، وان اشار اليه بعض الدارسين(٢٨) .

(٤)

الاتجاهات

كانت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الادبية اللغوية ومنها الفلسفية الكلامية ، وقد ادى ذلك الاختلاف في المؤثرات الى ان تتجه البلاغة اتجاهين اطلق عليهما اسم « المدرسة الكلامية » و « المدرسة الادبية » . وامر هذين الاتجاهين او المدرستين قديم ، وقد نبه ابو هلال العسكري الى منهجين في دراسة البلاغة وقال : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم اطل الكلام في هذا الفصل » (١) وقال جلال الدين السيوطي وهو يترجم لنفسه : « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم واهل الفلسفة » (٢) . ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما صرح ابو هلال بها منذ وقت مبكر، وافتخر السيوطي بانه درس البلاغة على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم واهل الفلسفة . فما خصائص كل من المدرستين ، وما اهم كتبهما ، ومن اشهر رجالهما ؟

الاولى : المدرسة الكلامية ، وقد ظهرت نتيجة الاثر الكبير لعلوم الفلسفة والمنطق في الثقافة الاسلامية والعربية ، وكان للبلاغة نصيب من ذلك الاثر فتوثقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين العلوم العقلية وبلغ اوج ذلك الاتصال في القرن السادس للهجرة وما بعده على يد السكاكي صاحب « مفتاح العلوم » والخطيب القزويني صاحب « التلخيص » و « الايضاح » وشراح التلخيص . وهذه الصلة الواضحة جعلت المرحوم امين الخولي يقول : اننا لو انعمنا النظر ومضينا في التقصي لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نشأة البلاغة وظهورها، وفي تطورها وسير دراستها ، وفي ضبط بحوثها وتحديد دائرة درسها ، وفي تعيين غرضها وغايتها (٢) : وهذه حقيقة تظهر عند النظر في مؤلفات هذه المدرسة التي من أول سماتها العناية بالتحديد والتعريف والتقسيم المنطقي والاهتمام بجعل التعريف جامعا مانعا . ثم استعمال اساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها واستعمال الالفاظ الفلسفية والمنطقيــة .

وقد ساق البلاغيون كثيرا من المقولات عند الكلام على الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة وما صدروا به البيان من بحوث الدلالات الوضعية والعقلية . وادخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية

والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والعلوم والحواس الانسانية ومقرها والوهم والخيال والمفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات . وادخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية المحمول والموضوع والايجاب والسلب وغير ذلك من المصطلحات التي لا علاقة لها بالبلاغة بقدر علاقتها بالعلوم العقلية . وقد اعترف كثير من البلاغيين بذلك ولكنهم كانوا يذكرونها خشية أن يوسموا بالجهل ، اي ان حشرها كان نوعا من التعالم او اظهار المعرفة بالثقافات السائدة .

لقد حددوا البلاغة بهذه المقاييس وضبطوا مباحثها بهذه الاعتبارات العقلية التي ازهقت روح البلاغة واحالتها قواعد جامدة ، وبذلك نشا الجدل العنيف والنقاش الحاد في كتب البلاغة فاخرجها عن هدفها الفني . ومن يقرا كتب المتاخرين ولاسيما شروح التلخيص يجد هذه الظاهرة واضحة جلية ، ويجد ان احكام المدرسة الكلامية بعيدة عن الروح الادبية المعتمدة على الذوق الادبي والاحساس الفني الصادق .

ومن مظاهر الاثر الفلسفي في هذه المدرسة الاقلال من الشواهد والامثلة الادبية ، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهدا واحدا او مثالا قصيرا او بعض الشواهد والامثلة التي خلت من الجمال او المسحة الفنية ، لان الهدف هو التمثيل والاستشهاد

العقلي لا ما يثيره النص في النفس من انفعال او شعور . ولعل اهتمام المتاخرين بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة كان سببا في الاقلال من الشواهد والامثلة والاكتفاء باقلها واقصرها وبما ينسجم مع اذواقهم التي سيطرت عليها النزعة الكلامية والصنعة البديعية ؛ ولذلك بقي تمثيلهم منحصرا في الجملة او الجملتين ولم يتجاوزها الى القطع الادبية التي تكون وحدة فنية ؛ وترسم صورا تزخر بالمعنى وتثير الاحساس بالجمال .

وقد شاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر ومن اليهم من الاقوام غير العربية . وكانت خوارزم اكبر المناطق التي ظهر فيها اقطاب هذه المدرسة كجارالله الزمخشري صاحب « الكشاف » وفخرالدين الرازي مؤلف « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » وابي الفتح ناصر بن ابي المكارم المطرزي مؤلف كتاب « الايضاح في شرح مقامات الحريري » والسكاكي صاحب « مفتاح العلوم » وسعد الدين التفتازاني شارح تلخيص مفتاح العلوم للخطيب القزويني . واستطاعت هذه المدرسة السيطرة على الدراسات البلاغية بعد عبدالقاهر الجرجاني وبلغت ذروتها في عصور الشروح والتلخيصات .

واهم كتب هذه المدرسة : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والبرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب ـ

وهو المطبوع باسم نقد النثر والمنسوب الى قدامة ــ ودلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجاني ، ونهاية الايجاز للرازي ، ومفتاح العلوم للسكاكي ، والمصباح لبدرالدين ابن مالك ، وتلخيص المفتاح والايضاح للخطيب القزويني ، وعروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاءالدين السبكي ، والمختصر والمطول لسعدالدين التفتازاني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ، وغيرها من الكتب التي سارت على منهج السكاكي والقزويني حتى هذا العصر .

الثانية : المدرسة الادبية ، وقد ظهرت نتيجة عوامل اخرى غير الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وكان من اهمها القرآن الكريم الذي طبع بحوث البلاغة بطابع ادبي ، ويتجلى ذلك في كثرة الشواهد التي اقتبسها البلاغيون من كتاب الله . وكان للكتاب اثر واضح فقد صبغوا كثيرا من مباحث البلاغة بصبغة ادبية . وكان للشعراء دور كبير ايضا فقد شاركوا في التاليف وكان الشاعر ابن المعتز من اوائل الشعراء الذين وضعوا كتبا فيها ، وما كتابه « البديع » الا واحدا من تلك الكتب التي الفها الشعراء خلال القرون الماضية . وقد طبعت هذه المؤثرات ــ القرآن والكتاب والشعراء ــ البلاغة بطابع ادبي ، وكانت نتيجة ذلك ان اتجهت اتجاها اخر وسلكت طريقا بعيدا عن المدرسة الكلامية . وهذا

الاتجاه الذي سارت البلاغة فيه هو الذي ارسى قواعد المدرسة الادبية ووطد اركانها .

ومن خصائص هذه المدرسة الابتعاد عن التحديد والتقسيم ، وان جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق ونفاذ والتزام للتصحيح التام للاصول المنطقية ، الا ان يكون شيء من ذلك اثرا لعدوى المدرسة الكلامية . ولم تهتم باقتباس المنطقيات ومسائل الفلسفة وانما نبذتها وحملت عليها وحاربتها ، وكان ضياء الدين بن الاثير احد اقطابها الذين حملوا حملة عنيفة على الفلسفة ورأى في اعلامها من امثال ابن سينا والفارابي رجالا اضلهم ارسطو وافلاطون ، قال : « اعلم ان ذلك الحصر كلي لا جزئي ، ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لانهاية لها . لاجرم ان ذلك الحصر لايستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه ، فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يمر شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان ياتي بالسحر الحلال ان قال شعرا أو تكلم نثرا » (٤) .
وقال : « ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا وانساق الكلام الى شيء ذكر لابي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا ، وقام فاحضر كتاب الشفاء لابي علي ووقفني على ماذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته فانه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لايستفيد

به صاحب الكلام العربي شيئا . ثم مع هذا جميعه فان معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي انه يورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا مما لم يخطر لابي علي بن سينا فيما صاغه من شعر او كلام مسجوع ؛ فان له شيئا من ذلك في كلامه ، وعند افاضته في صوغ ما صاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ؛ ولو انه فكر اولا في المقدمتين والنتيجة ثم اتى بنظم او نثر بعد ذلك لما اتى بشيء ينتفع به ولطال الخطب عليه ؛ بل اقول شيئا آخر وهو ان اليونان انفسهم لما نظموا ما نظموه من اشعارهم لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة ؛ وانما هذه اوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر ؛ وهي كما يقال ليس لها طائل كانها شعر الابيوردي » (٥) . ويتضح هذا الابتعاد عن الفلسفة والمنطق وعلم الكلام في معظم كتب المدرسة الادبية مثل كتب اسامة بن منقذ وابن الاثير وابن ابي الاصبع المصري .

ومن خصائص هذه المدرسة انها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على الادب ؛ ولذلك تعلل مرة ولا تستطيع التعليل مرة اخرى ، وترجع الحسن والجمال الى الذوق والاحساس الفني . وكان اسلوب كتبها وعباراتها سهلة واضحة لاتحتاج الى عناء كبير في فهمها كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الكلامية ، وسبب ذلك ان معظم رجالها عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر

والمغرب ، وكانوا الى جانب ذلك شعراء او كتابا لهم ذوق ادبي واحساس فني مرهف . فالجاحظ مع انه معتزلي متكلم كان اديبا كبيرا ، وابن المعتز كان شاعرا اصيلا ، وابو هلال العسكري وضياء الدين بن الاثير وشهاب الدين الحلبي كانوا كتابا . اما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات فارسية او تركية او تترية فغلبت على كتبهم العجمة وسيطر على اساليبهم التعقيد ، ولم يكونوا شعراء او كتابا وانما عرفوا بالمنطق وعلم الكلام والعلوم العقلية التي تعنى بالدقة والضبط اكثر من عنايتها بجمال العبارة وتاثيرها في النفوس .

وتتسم المدرسة الادبية بالاكثار من الشواهد والامثلة ، وكان المؤلفون يذكرون القاعدة بسطر او سطرين وياتون بالامثلة التي تتجاوز الصفحات . ولم تكن امثلتهم مقصورة على الجملة او بيت الشعر وانما تمدتها الى القطعة الشعرية والرسالة الادبية ، ويتضح هذا في جميع كتب المدرسة ، فابن المعتز ــ مثلا ــ يذكر تعريف الاستعارة او التجنيس ويورد بعد ذلك امثلة كثيرة ويفرق بين حسنها ورديئها . وابو هلال ينحو هذا المنحى في « كتاب الصناعتين » وان بدا في الكتاب شيء من المنهج العقلي في التقسيم والحصر والتبويب . واسامة بن منقذ يتبع طريقة ابن المعتز فيكتفي بالتعريف الموجز ، ثم يورد الامثلة الكثيرة .

وسادت المدرسة الادبية في المناطق الوسطى من الدولة الاسلامية اي في العالم العربي كالعراق ومصر والشام والمغرب . واهم كتبها التي تعرب عن حركتها وآراء رجالها كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ، والعمدة لابن رشيق القيرواني ، واسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني ، والبديع في نقد الشعر لاسامة بن منقذ ، والمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر والجامع الكبير لضياء الدين بن الاثير ، وبديع القرآن وتحرير التحبير لابن ابي الاصبع المصري .

وعد المرحوم امين الخولي من رجال هذه المدرسة بهاءالدين السبكي صاحب « عروس الافراح »(٦) ولكن كتابه يبتعد كثيرا عن النزعة الادبية في منهجه ومادته ، فقد حشر فيه مسائل كثيرة لا صلة لها بالبلاغة واكثر من علم الاصول اكثارا عظيما ، وذكر تقسيمات كثيرة ينفر منها الدارس مع انه انتقد اهل المشرق ومنهجهم البلاغي فقال : « اما اهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله ـ تعالى ـ عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والاذهان التي هي ارق من النسيم والطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم . اكسبهم النيل تلك الحلاوة واشار اليهم باصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما انفت فيه العلماء ـ فضلا عن الاغمار ـ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف الاستار »(٧) ولكن السبكي

على الرغم من احساسه بهذه الحقيقة لم يسر على المنهج الادبي الذي يبتعد عن حشر الفلسفة ومسائلها في البلاغة وانما اتجه اتجاه المدرسة الكلامية في تقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع ، وادخال علم الاصول وعلم المنطق والفلسفة في مباحثها ، والاهتمام بالتقسيم والتحديد .

ويتصل بالمدرسة الادبية ما اطلق عليه مذهب مصر والشام(٨) ، وهو مذهب اتضح في القرن السادس للهجرة وما بعده في هاتين البيئتين العربيتين ، وكان هذا الاتجاه يختلف كل الاختلاف عن مذهب المشارقة الذي اهتم اعلامه بوضع القواعد المنطقية والحدود الجامعة المانعة ، والابتعاد عن المقاييس الادبية في النقد والموازنة والتحليل . لقد كان اهل مصر والشام يميلون الى تحكيم الذوق في البلاغة والنقد ، والاهتمام بصور البديع وما توحيه من انفعالات نفسية تتعلق بالاحساس الفني والوجدان . ومن اشهر اعلام هذه البيئة ابن سنان صاحب « سر الفصاحة » واسامة بن منقذ مؤلف « البديع في نقد الشعر » وابن شيث القرشي صاحب « معالم الكتابة ومغانم الاصابة » ، وابن الاثير صاحب « المثل السائر » و « الجامع الكبير » وابن الزملكاني مؤلف « التبيان في علم البيان » و « البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن » وابن أبي الاصبع المصري صاحب « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » .

واهم ما يلاحظ من خصائص هذا المذهب أن رجاله لم يقسموا البلاغة الى علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وانما بحثوها بمناهج اخرى وكان لكل رجل اسلوبه وطريقته في العرض والتحديد . ولم يولع رجال هذا الاتجاه بالتحديد الجامع المانع مع ان السكاكي معاصر ابن الاثير كان قد اهتم بذلك اهتماما كبيرا ووضع المصطلحات البلاغية وضعا دقيقا يعتمد على المنطق والاسلوب الفلسفي الدقيق . وانصرف رجال هذا الاتجاه عن الفلسفة والمنطق في العرض والتحليل ، وكان الذوق عمدتهم في ذلك . واستحدثوا فنونا جديدة تمثل البيئة ، ومن ذلك ما ذكره ابن ابي الاصبع المصري من فن النزاهة ، وهو عنده نزاهة الفاظ الهجاء وغيره عن الفحش ، وفن التدبيج ، وفن التنذير وغيرها مما اضافه هذا الرجل الى البلاغة العربية (٩) .

ان مذهب مصر والشام لا يمثل مدرسة ثالثة وان بحث ، وانما هو ركن من اركان المدرسة الادبية التي امتدت من القرن الثاني للهجرة حتى القرن السابع وما بعده بقليل . وهذا يوضح ان الذوق والاحساس الفني والنزعة الادبية لم تمت مع جنوح الحياة الادبية الى التقليد وسيطرة المناهج الفلسفية على الدرس البلاغي والنقدي . ولعل ابن الاثير وابن ابي الاصبع المصري يمثلان قمة المدرسة الادبية في القرن السابع للهجرة وقد عاشا في مصر والشام .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان ، وقد اتضحت لكل منهما سمات وافردت لها كتب ، ولكن هل هناك حد فاصل بين الذين اتبعوا الطريقة الكلامية والذين نهجوا سبيل المدرسة الادبية ؟ ليس ذلك بالواضح ، فكثيرا ما يمزج البلاغي الواحد بين الطريقتين ، ويستفيد من المدرستين ، فالجاحظ ــ مثلا ــ وهو رأس فرقة اعتزالية سميت « الجاحظية » يميل الى الناحية الادبية ويحكم الذوق في كثير من الاحيان ، وابو هلال العسكري مع اقراره انه لن يتبع طريقة المتكلمين يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في مضمارهم . وكان عبدالقاهر الجرجاني يميل مرة الى المدرسة الكلامية في كتابه « دلائل الاعجاز » ويتجه الى المدرسة الادبية في كتابه « اسرار البلاغة » فهو في الاول يجادل جدلا منطقيا ويكرر اساليب اهل الكلام ، ولعل سبب ذلك انه يبحث في اعجاز القرآن الكريم ويقارع اهل النحل الزائفة ويرد اقوالهم ويفند اراءهم . وهو في كتابه الثاني اديب بليغ يعمد الى التحليل واظهار ما في الكلام من بلاغة وجمال ، ولم يكن في ذلك ما يدعو الى الاستعانة بالاساليب العقلية لانه ليس بصدد البرهنة على الاعجاز والرد على الطاعنين ببلاغة القرآن ، وانما هو بصدد تحليل كلام العرب والوقوف على اسراره ، وليس في ذلك ما يدعو الى الحجج العقلية والادلة المنطقية(١٠) .

ومن جمعوا بين المدرستين يحيى بن حمزة العلوي في كتابه « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز » فهو في القسم الاول يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف مسائل البلاغة وتقسيمها الى معان وبيان وبديع . ولعل سبب ذلك انه في القسم الاول يتحدث عن كلام العرب واسس نقده ، وفي القسم الثاني يتكلم على اعجاز القرآن ، وهو في هذا يشبه عبدالقاهر الذي اتخذ من المنطق والحجج العقلية اساسا في كتابه « دلائل الاعجاز » ومن الذوق والنزعة الفنية منهجا في كتابه « اسرار البلاغة » : يضاف الى ذلك أن مصادر العلوي جمعت بين كتب المدرسة الادبية والمدرسة الكلامية ،

قال وهو يتحدث عن البيان : « ولم اطالع من الدواوين المؤلفة فيه مع قلتها ونزورها الا اكتبة اربعة : اولها كتاب « المثل السائر » للشيخ أبي الفتح نصر بن عبدالكريم المعروف بابن الاثير . وثانيها كتاب «التبيان» للشيخ عبدالكريم . وثالثها كتاب « النهاية » لابن الخطيب الرازي . ورابعها كتاب « المصباح » لابن سراج المالكي . واول من اسس من هذا العلم قواعده واوضح براهينه واظهر فوائده ورتب افانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجاني . فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد وهد من سور المشكلات

بالتصوير المشيد ، وفتح ازهاره من اكمامها ، وفتق ازراره بعد استغلاقها واستبهامها . فجزاه الله عن الاسلام افضل الجزاء ، وجعل نصيبه من ثوابه اوفر النصيب والاجزاء . وله من المصنفات فيه كتابان احدهما لقبه بدلائل الاعجاز والاخر لقبه باسرار البلاغة ، ولم اقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما وشدة اعجابي بهما الا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما »(١١) . فالمثل السائر واسرار البلاغة يمثلان الاتجاه الادبي ، وقد كان للكتاب الاول تاثير كبير في الطراز . ونهاية الايجاز والمصباح ودلائل الاعجاز تمثل النزعة الكلامية وتقسيم البلاغة الى مباحثها المعروفة ومعالجتها باسلوب عقلي ، وقد كان لهذه الكتب نصيب كبير في تقسيم العلوي لمباحث البلاغة وبحث اقسامها . والتبيان من الكتب التي جمعت بين دلائل الاعجاز واسرار البلاغة ، فهو كلامي ادبي ، وبذلك تلون كتاب الطراز للعلوي بهذين اللونين مع انه عاش في عهد سيطرت فيه النزعة الفلسفية وساد المذهب الاعتزالي في البيئة التي عاش فيها يحيى بن حمزة العلوي وهي بيئة اليمن .

لقد اتضح الاتجاهان ويدخل فيهما كل مذهب بلاغي او نقدي اخر على الرغم من الخصائص العامة التي امتازت بها البيئات العربية والاسلامية ، ومع ان تعدد المذاهب ظهر في العصور المتاخرة غير ان وحدة

البحث تبلورت في اتجاهين او مدرستين هما : المدرسة الكلامية والمدرسة الادبية . وليظهر الفرق بين الاتجاهين واضحا لابد من عرض مثال يصور البحث البلاغي في القرن السابع للهجرة وهو القرن الذي قسمت فيه البلاغة الى علومها الثلاثة ودخلتها المقاييس الكلامية والتحديدات المنطقية والنزعات العقلية : وخير من يمثل الاتجاهين في القرن السابع السكاكي صاحب « مفتاح العلوم » وابن الاثير صاحب « المثل السائر » .

قسم الاول البلاغة الى علمين متميزين هما : علم المعاني وعلم البيان ، وحصر موضوعات كل علم حصرا منطقيا ، الحق بهما البديع الذي عده وجوها يؤتى بها لتزيين الكلام ، وادخل الاساليب الكلامية والفلسفية في معالجة القضايا واسرف في الايجاز . وقسم الثاني البلاغة او البيان الى الصناعة اللفظية وهي الالفاظ وبعض فنون البديع كالسجع ، والتجنيس ، والترصيع، ولزوم مالا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها ، والمعاظلة اللفظية ، والمنافرة بين الالفاظ في السبك . والصناعة المعنوية وهي الاستعارة، والتشبيه، والتجريد ، والالتفات ، والايجاز ، والاطناب ، والتكرير، والكناية ، والتضمين ، والسرقات وغيرها . ولم يحصر الموضوعات حصرا منطقيا دقيقا ولم يدخل الاساليب الكلامية والفلسفية في بحث القضايا ، لانه كان ثائرا على

تلك الاساليب وكان يعد ابن سينا والفارابي وغيرهما رجالا اضلهم ارسطو وافلاطون .

هذه نظرة عابرة في منهج كل واحد من الرجلين ؛ اما معالجة الموضوعات فتتضح في عرض الاستعارة عندهما . بدأ السكاكي هذا الفن الذي ادخله في علم البيان بتعريفه قائلا : « هي ان تذكر احد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الاخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به »(١٢) . ويدخل في هذا التعريف القسمان الاساسيان للاستعارة وهما : الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية . وقد اوضح ذلك بالتمثيل الذي ذكره بعد التعريف فقال : « كما تقول في الحمام أسد ، وانت تريد به الشجاع مدعيا انه من جنس الاسود ، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به وهو اسم جنسه مع سد طريق التشبيه بافراده في الذكر » وهذا مثال التصريحية؛ اما المكنية فمثالها كما قال : « أو كما تقول ان المنية انشبت اظفارها وانت تريد بالمنية السبع بأدعاء السبعية لها وانكار ان تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الاظفار » . ثم تحدث عن سبب تسمية هذا النوع من المجاز استعارة وتعرض لما ذكره عبدالقاهر من دخول الاستعارة في المجاز العقلي او المجاز اللغوي . وقسمها الى عدة اقسام ، قال : « ان الاستعارة تنقسم الى مصرح بها ومكني عنها ، والمراد بالاول هو ان يكون

الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به ، والمراد بالثاني ان يكون الطرف المذكور هو المشبه . والمصرح بها تنقسم الى تحقيقية وتخييلية والمراد بالتحقيقية أن يكون المشبه المتروك شيئا متحققا اما حسيا واما عقليا ، والمراد بالتخييلية ان يكون المشبه المتروك شيئا وهميا محضا لا تحقق له الا في مجرد الوهم ، ثم تقسم كل واحدة منهما الى قطعية ، وهي ان يكون المشبه المتروك متعين الحمل على ما له تحقق حسي او عقلي ، او على ما لا تحقق له البتة الا في الوهم . والى احتمالية ، وهي ان يكون المشبه المتروك صالح الحمل تارة على ماله تحقق ، واخرى على مالا تحقق له . فهذه اقسام اربعة : الاستعارة المصرح بها التحقيقية مع القطع ، الاستعارة المصرح بها التخييلية مع القطع ، الاستعارة المصرح بها مع الاحتمال للتحقيق والتخييل ، الاستعارة بالكناية . ثم ان الاستعارة ربما قسمت الى اصلية وتبعية ، والمراد بالاصلية ان يكون معنى التشبيه داخلا في المستعار دخولا اوليا ، والمراد بالتبعية ان لا يكون داخلا دخولا اوليا، وربما لحقها التجريد فسميت مجردة او الترشيح فسميت مرشحة » (١٢) . ثم تكلم على هذه الاقسام الثمانية ، وذكر لكل واحد امثلة قليلة ، ومعظم هذه الامثلة مقتطع من امثلة عبدالقاهر الجرجاني . ومن ذلك قول زهير بن ابي سلمى وهو من شواهد الاستعارة المصرح بها المحتملة للتحقيق والتخييل :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله
وعري افراس الصبا ورواحله

قال السكاكي : « اراد ان يبين انه امسك عما كان يرتكب اوان الصبا وقمع النفس عن التلبس بذلك معرضا الاعراض الكلي عن المعاودة لسلوك سبيل الغي وركوب مراكب الجهل فقال : « وعري افراس الصبا ورواجله » اي : ما بقيت آلة من الاتها المحتاج اليها في الركوب والارتكاب قائمة كايما نوع فرضت من الانواع حرفة او غيرها متى وطنت النفس على اجتنابه ورفع القلب رأسا عن دق بابه وقطع العزم عن معاودة ارتكابه نقل العناية بحفظ ما قوام ذلك النوع به من الالات والادوات ، فترى يد التعطيل تتولى عليها فتهلك وتضيع شيئا فشيئا حتى لا تكاد تجد في أدنى مدة اثرا منها ولا عثيرا ، فبقيت لذلك معراة لا آلة ولا اداة . فحق قوله : « افراس الصبا ورواحله » ان يعد استعارة تخييلية لما يسبق الى الفهم ويتبادر الى الخاطر من تنزيل « افراس الصبا ورواحله » منزلة أنياب المنية ومخالبها . وان كان محتمل احتمالا بالتكلف ان تجعل الافراس والرواحل عبارة عن دواعي النفوس وشهواتها والقوى الحاصلة لها في استيفاء اللذات او عن الاسباب التي قلما تتآخذ في اتباع الغي وجر اذيال البطالة الا اوان الصبا »(١٤) .

وبدا ابن الاثير بحث الاستعارة بالكلام على رجوعها الى المعنى لا الى اللفظ كالتجنيس وقسم المجاز الى قسمين : توسع في الكلام وتشبيه ، والتشبيه ضربان : تشبيه تام وتشبيه محذوف ، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه به ، ويسمى استعارة . وفرق بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الاداة ، وعرف الاستعارة بقوله : « والذي عندي من ذلك ان يقال : حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه ، لانه اذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدا لها دون التشبيه : وطريقه انك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهرا ومضمرا وتجيء الى المشبه تتعيرة اسم المشبه به وتجريه عليه(١٥) . ولم يقسم الاستعارة الى التصريحية والمكنية والتخييلية والتحقيقية وغير ذلك مما ذكره السكاكي وانما تحدث عن اقسام المجاز التي ذكرها الامام الغزالي وقال انها ترجع الى ثلاثة انواع : التوسع والتشبيه والاستعارة . ثم بدا بالامثلة التي يستفيد منها المتعلم مالا يستفيده ذكر الحد والحقيقة ، وهي امثلة كثيرة بداها بقوله تعالى : « الر ، كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » (١٦) وقال : « فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان ، او للضلال والهدى ، والمستعار له مطوي الذكر كانه قال : لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة الى الايمان الذي هو كالنور »(١٧) .

وهذا تحليل واضح لقوله تعالى يبين الاستعارة فيه من غير استخدام الاساليب العقلية أو الكلامية في العرض والتحليل وقال معلقا على ابيات ديك الجن .

لما نظرت الي عن حدق المها
وبسمت عن متفتح النوار

وعقدت بين قضيب بان اهيف
وكثيب رمل عقدة الزنار

عفرت خدي في الثرى لك طائعا
وعزمت فيك على دخول النار

« وهذه الابيات لا تجد لها في الحسن شريكا ، ولان يسمى قائلها شحرورا أولى من ان يسمى ديكا »(١٨) . وقال عن بيت ديك الجن :

واقحوان بفيك منتظم
على شبيه من رائق الخمر

« المستعار له هو الثغر والريق »(١٩) . وقال عن بيت البحتري :

وصاعقة في كفه تنكفي بها
على ارؤس الاعداء خمس سحائب

« وهذا من النمط العالي الذي شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر الى استعارته ، والمراد

بالسحائب الخمس الاصابع »(٢٠) . وكان السكاكي قد قال عن هذا البيت : « انظر حين اراد استعارة السحائب لانامل يمين الممدوح تفريعا على ما جرت به العادة من تشبيه الجواد بالبحر الفياض تارة وبالسحاب الهطال اخرى ماذا صنع ؟ ذكر ان هناك صاعقة ثم قال: « من نصله »(٢١) فبين ان تلك الصاعقة من نصل سيفه ، ثم قال : « على ارؤس الاقران » ثم قال : « خمس » فذكر العدد الذي هو عدد جميع انامل اليد ، فجعل ذلك كله قرينة لما اراد من استعارة السحائب للانامل »(٢٢) . وهذا الشرح اكثر توضيحا من كلام ابن الاثير ، واقرب الى مدارك المتعلمين ، وان كان الاول يمس الجانب الفني مسا رقيقا ويترك السامع يسبح في الخيال .

وتظهر الموازنة بين السكاكي وابن الاثير في بحث الاستعارة ان الاول يميل الى الحد الجامع المانع وهو مهم في الدراسة العلمية ، وان الثاني يومىء الى معنى الاستعارة من غير ضبط لاركانها وتحديد لاقسامها . وتبدو استفادة السكاكي من المصطلحات العلمية في تقسيم الاستعارة فهو يذكر التحقيق والتخييل ، والاصلي والتبعي ، والتصريح والكناية ، والقطع والحمل ، والحسي والعقلي ، وليس في كلام ابن الاثير شيء من ذلك لانه ينفر من هذه التقسيمات والمصطلحات التي لا تخدم الفن الادبي .

ويبدو الجور على الناحية الادبية في شواهد السكاكي وامثلته ، فهو لم يذكر الا ابياتا قليلة للاستعارة بانواعها الثمانية ، وذكر ابن الاثير عشرات الابيات الشعرية والقطع التي تجاوزت البيت والبيتين ، وهذه من أهم سمات ابن الاثير وخصائص المدرسة الادبية التي اكثرت من النصوص . ويظهر تحكم الذوق في التعليق على النصوص عند ابن الاثير ، فهو يكتفي بعبارة في اغلب الاحيان ولا يسرف في المماحكة التي شغف بها السكاكي حبا واحال مباحث البلاغة ميدانا للجدل والتاويل .

ان هذه الموازنة العجلى توضح اختلاف المدرسة الكلامية عن المدرسة الادبية في التعريف والتقسيم والامثلة والتحليل ، وهو اختلاف ينبع من طبيعة المنهج الذي اتبعته كل مدرسة ، ومن ثقافة المؤلف وذوقه ، وهو اختلاف تقتضيه الدراسات الادبية لولا انه يسرف في التمحل والتحكم العقلي عند اصحاب المدرسة الكلامية ويوغل في الايجاز او اللمحة عند اصحاب المدرسة الادبية. وقد ادى ذلك الى انحسار المدرسة الادبية وسيطرة المدرسة الكلامية بعد أن توقفت الحياة الادبية وجنح الادباء الى التقليد ، وبعد أن سادت شروح التلخيص والمنهج التعليمي المعتمد على القواعد والتقسيمات .

(٥)

المناهج

استقر البحث البلاغي بعد القرن السابع للهجرة على ما رسمه السكاكي في القسم الثالث من « مفتاح العلوم » ولم تنفع صرخة السبكي في مقدمة كتابه « عروس الافراح » وظل « تلخيص » الخطيب القزويني عمدة البلاغيين مع ان البديعيات ظهرت في ذلك العهد وكان منهج شروحها اقرب الى كتاب « البديع » لابن المعتز ، و « البديع في نقد الشعر » لاسامة بن منقذ ، و « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » لابن ابي الاصبع المصري ، وان كتاب « المنزع البديع » لابي محمد القاسم السجلماسي اخذ طريقه الى البلاغة وتوزعت موضوعاته فيه الى عشرة انواع ضمت الفنون المختلفة ؛ ولكن أمثال هذه الكتب لم تؤثر في منهج البحث وظل « التلخيص » وشروحه اساس الدارسين والمؤلفين .

ومنهج التلخيص لا يختلف عن منهج « مفتاح العلوم » اختلافا كبيرا (١) ، بداه القزويني بمقدمة في فصاحة المفرد والكلام ، وعرف البلاغة بقوله : « البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » وذكر أن مقامات الكلام متفاوتة ، وان البلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى بالتركيب ، ولها طرفان :

اعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه ؛ واسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء باصوات الحيوانات ؛ وبينهما مراتب كثيرة وتتبعها وجوه اخر تورث الكلام حسنا .

وقسم البلاغة الى ثلاثة علوم :

الاول : علم المعاني ؛ وهو « علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال » . وحصره في ثمانية ابواب : احوال الاسناد الخبري ؛ واحوال المسند اليه ؛ واحوال المسند ؛ واحوال متعلقات الفعل ؛ والقصر؛ والانشاء؛ والفصل والوصل؛ والايجازوالاطناب والمساواة .

والثاني : علم البيان ؛ وهو « علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه » . وادخل في هذا القسم الدلالات ؛ وقال ان دلالة التشبيه وضعية ؛ ودلالة المجاز عقلية . وقسم البيان الى التشبيه والمجاز بانواعه والكناية .

والثالث : علم البديع ؛ وهو « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة » وهو ضربان : معنوي ولفظي ؛ ومن المعنوي : المطابقة ؛ومراعاة النظير ؛ والارصاد ؛ والتورية ؛ والمبالغة ؛ والمذهب الكلامي ؛ وحسن التعليل . ومن اللفظي : الجناس ؛ ورد العجز على الصدر ؛ والسجع ؛ والموازنة ؛ ولزوم مالايلزم .

وختم كتابه ببحث السرقات الشعرية وما يتصل بها من الاقتباس والتضمين والحل والعقد والتلميح ، وعقد فصلا في حسن الابتداء ، وحسن التخلص ، وحسن الانتهاء .

ولم يخرج القزويني في كتابه « الايضاح » عن هذا المنهج ، ولم يغير الشراح هذا الترتيب ، وبذلك بقيت البلاغة خاضعة لمنهج السكاكي وتابعيه كالقزويني والتفتازاني والسبكي ، وظلت تدرس بهذه الصورة حتى مطلع القرن العشرين . وقد حاول الامام محمد عبده أن يعيد الى البحث البلاغي رواءه وان يقوم ما اعوج من مناهج البحث وطرائق التدريس ، واخذ يدرس في الازهر الشريف كتابي « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » وطبع الكتابان ولكن اساتذة الازهر احجموا بعد الامام عن تدريسهما وعاد منهج القزويني وشراح التلخيص .

وحاول المحدثون ان يضعوا مناهج بحث البلاغة الجديدة بعد ان وقفت عند الرسوم التي حددها السكاكي والقزويني ، ومن هؤلاء طه أحمد ابراهيم الذي لم تطبع محاضراته في البلاغة ، وامين الخولي الذي يرى ان التقسيم القديم لا اساس له ولا غناء فيه ، لان البحث البلاغي ينبغي أن يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة لا البحث في الجملة والجملتين ، وان ما حشدته طريقة العجم واهل الفلسفة فيها من مقدمات

منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ينبغي ان تبعد وتضم الى البلاغة مكانها مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه. وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس واثره في التعبير الادبي والوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني وبالخيال والذاكرة والاحساس والذوق . ثم تبدأ بعدها دراسة البلاغة على منهج صحيح من غير تفريط بالتراث والبلاغة القديمة ، لان التجديد ليس معناه هدم القديم وانما هو البناء بعد الاستعانة به وبما وصلت اليه الحضارة في هذه الايام .

وتجمعت جهود الخولي في كتابه « فن القول » الذي كان توجيها منهجيا شاملا لبحث البلاغة وخلق مدرسة جديدة ، فهو يرى أن بحوث فن القول ينبغي ان تكون ثلاثة ابواب هي : المبادىء ، والمقدمات ، والبحوث . يدرس في الاول تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات ، ويدرس في الثاني مقتبسات من القضايا النفسية التي تعين كثيرا في فهم الادب وتذوقه والاحساس بما فيه من روعة وجمال . ويدرس في الثالث البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي وما فيها من جمال وجرس موسيقي له اثر في التعبير ، والبحث في الجملة وما فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وايجاز . ويضم الثالث أيضا البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل وما تؤدي من معان وصور ،

والبحث في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والايحاء والتورية . وتضم البحوث بعد ذلك الاساليب الفنية في الادب وانواعها كالاسلوب الرمزي والفكاهي والتهكمي وبهذا المنهج الواسع الذي يشمل معظم مباحث البلاغة القديمة وكثيرا من الفنون الحديثة تدرس البلاغة دراسة جديدة تقوم على تفهم الفن الادبي ومقاييسه البلاغية والنقدية .

وقد فصل امين الخولي في منهجه الجديد ووضع ابوابه وفصوله ومفرداته في خاتمة كتابه « فن القول » وقال عنه : « تلكم هي خطة فن القول وتنسيق بحوثه لا نقول انها في صورتها الاخيرة بل نقول انها تخطيط لمحاولة نامل ان تظل ابد الدهر لو امكن ذلك رهن التغيير والتعديل وهدف التجديد والتحسين ، يضيف الينا ويحذف منها وينسقها من تهيات له القدرة الصادقة على ذلك وكانت له فيه بصيرة خبيرة ليظل هذا الدرس للفن القولي صدى لحياة أهله وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة الوجدانية الراقية »(٢) .

وهذا المنهج قديم في مادته جديد في منهجه ، ويعد من احسن ما جاء به المحدثون غير ان المرحوم الخولي اسرف في المقدمات الفنية والنفسية كما اسرف القدماء في المقدمات الفلسفية والمباحث الكلامية والمنطقية فاخرجت البلاغة عن هدفها وابعدتها عن فن القول الذي يريده الخولي . ولعل شيوع علم النفس حينما وضع منهجه

دعاه الى هذا الاهتمام الكبير به ، وتكاد الدراسات الادبية الحديثة تبتعد عن هذا المنحى وتتجه اتجاها اخر تخلص فيه للنزعة الادبية والتحليل المعتمد على العلاقات بين الكلمات والجمل وهذا ما سماه عبدالقاهر الجرجاني النظم وما يسميه المعاصرون البنيوية او البنائية(٣) . وقد يتغير هذا الاتجاه في السنوات القادمة ، وقد تظهر تيارات جديدة ترى في البنيوية افسادا للادب .

اما القسم الثالث وهو البحوث فقد وفق فيه الخولي توفيقا كبيرا ، غير أن بعض ما أدخله في الكلمة يدخل في تركيب الكلام او ما سماه القدماء علم المعاني مثل التعريف ووضع المضمر موضع المظهر والعكس والالتفات والقصر والتوسع والتغليب والاستفهام والامر والنهي والنداء وخروج الاسلوب الانشائي عن اغراضه الحقيقية . وموضع ذلك كله الجملة او قسم الاسلوب وبناء العبارة ، ويدخل فيها ما سماه الخولي « الفقرة » وهو دراسة الفصل والوصل والايجاز والاطناب .

وادخل في الايضاح المعلن التشبيه والاستعارة والكناية والتجريد والقلب واسلوب الحكيم والمبالغة وتاكيد المدح بما يشبه الذم والتدبيج والتهييج والالهاب والتهكم والفكاهة والتجاهل ، وليس موضع هذه الفنون الايضاح المعان لان كثيرا منها ولاسيما التشبيه ايضاح والاستعارة والكناية واسلوب الحكيم من التخييل ،

وليس في التمثيل ايضاح معلن بل هو تصور يعتمد على المتلقي ؛ وقد يكون عنده ايضاحا وقد يكون عنده ابهاما ؛ ولا تخرج الفنون الاخرى عن التصور والتخيل . وقد يكون قسم صور التعبير المتللة اولى بها لان الرمز والايماء من الكناية كما ذهب اليه القدماء ، ومثل ذلك الالغاز والتورية .

ولا تدخل الاقسام الاخرى في البلاغة وانما هي من الدراسات الادبية والنقدية ، فالشعر وموضوعاته وخصائصه ، والنثر وانواعه تدخل في النقد او الادب ؛ ومثل ذلك الالفاظ والمعاني والعلاقة بينها . وللاساليب الادبية موضعها في كتب الادب والنقد .

ان المنهج الذي وضعه الخولي للبلاغة يتسع لكثير من الموضوعات وهو منهج جيد قوامه حفظ القديم وتطويره وضم الجديد وتيسيره ؛ ولكن الخروج عن هدف البلاغة في هذه الصورة لا يخدم هذا الفن لانه يحيله موضوعا اخر قد يكون بعيدا عن البيان . ولعل المرحوم الخولي تاثر بالكتب المدرسية التي كانت تدرس في المدارس الاوربية ابان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهي كتب لم توضع لرصد المناهج ودقتها وانما هدفها تعليم الناشئة في مرحلة الدراسة الاولى . وليست البلاغة او فن القول من الموضوعات التي ينبغي ان تذوب في دراسات اخرى ، لانها عمدة الاديب البليغ ومفتاح فهم اعجاز كتاب الله وادراكه ، ولا يصح ابعادها عن

القرآن الكريم او الغرض الديني كما تفعل اقوام اخرى ثارت على الدين وتركت كتب السماء وراءها ظهريا .

ومن الذين وضعوا منهجا لدراسة البلاغة احمد الشايب ، وكان كتابه « الاسلوب » ثمرة خبرة طويلة في درس البلاغة وتدريسها . وقد وضع في ضوء هذه الخبرة والتجارب منهجه الجديد . ويرى ان ينحصر موضوع علم البلاغة في بابين او كتابين : الاسلوب ، والفنون الادبية ، فيدرس في الاسلوب القواعد التي اذا اتبعت كان التعبير بليغا أي واضحا مؤثرا ، وتدرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة وعناصر الاسلوب وانواعه وصفاته ومقوماته وموسيقاه . وفي هذا القسم توضع البلاغة العربية ، فعلم المعاني يدخل في بحث الجملة وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة وتبقى المباحث الاخرى مهملة في هذه الكتب التي انتهت اليها الدراسة البلاغية . وفي الفنون الادبية وقد تسمى قسم الابتكار ، تدرس مادة الكلام واختيارها وتقسيمها وتنسيقها وما يلائم كل فن من الفنون الادبية وقواعدها كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ. وبالموازنة بين بحوث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الاخيرة وموضوعها كما يجب ان يكون ، انتهى الشايب الى أن نصف البلاغة النظرية مفقود في اللغة العربية ، اكثره في قسم الفنون الادبية وباقيه في باب الاسلوب ، وان شطرا من الاسلوب قد درس في المعاني والبيان

والبديع ، وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق . وليست هناك حاجة الى هذه الاسماء التي تسمى علوما خاصة لاجل فصول بلاغية يسيرة ، وان البلاغة العربية تحتاج الى وضع علمي جديد يشمل هذه الابواب والفنون ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية حتى يخدم الادب ، وان الادباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من اساليب الفلاسفة ومذاهبهم والغازهم ، فذلك هو الذي افسد البلاغة وحولها بحوثاً عقلية عقيمة اشبه بالرياضيات والكيمياء(٤).

ولم يخرج الشايب كثيراً عن منهج الخولي ورايه في القسم الاول الخاص بالاسلوب ، اما القسم الاخر فلا مسوغ لادخاله في البلاغة لان موضعه دراسات خاصة تتصل بالفنون الادبية .

ويرى عبدالله العلايلي ان ينهج في دراسة البيان الجديد احد وجهين :

الاول : الغاء كل مباحثه واصطلاحاته سوى التشبيه والكناية فان ما بقي يرجع اليهما من اقرب الطرق ، فهذه الاستعارة بالكناية يمكن ان ترد الى التشبيه الكنائي فيقال في مثل :

واذا المنية انشبت اظفارها

الفيت كل تميمة لا تنفع

شبهت المنية بشيء له اظافر وارسل كناية عن الامساك في دقة وشدة تعلق ، وما وراء هذا من التخييل تخيل . او بلا ملحظ التشبيه اصلا وانما من اول الامر يقال : جعل للمنية اظفارا كناية عن دقة التعلق وعسر الخلاص .

الثاني : الى حقيقة ومجاز ، وكل منهما كناية وتجريد ، والكناية الحقيقية تشمل الكناية البسيطة والتشبيه والمجاز المركب . والكناية والمجازية تشمل كل كناية انبنت على تشبيه ، والكناية المركبة .

اما علم المعاني فلما كان للغة بمثابة المنطق فهو يرى ان لا يدرس في كتب القواعد كعلم ، بل يدرس على نحو ما نجده في كتب الادب كما هو عند الجرجاني في « دلائل الاعجاز » والزمخشري في « الكشاف » مع تهذيب مباحثه لتكون أدخل في الذوق واقرب مناطا بالنفس . ويدرس علم البديع كما يدرس علم المعاني (٥) .

وفي هذا الراي قضاء على كثير من صور التعبير وابتعاد عن البلاغة قد يحرم الادباء اجمل ما فيها ويبعدهم عن التراث الذي ينبغي ان يبنوا عليه ادبهم الجديد . والمجدد هو من قتل القديم درسا وتحقيقا ، واطلع على مناهج البحث الحديثة فاخرج جديدا له صلة بالتراث وارتباط بالحاضر . ولن تقبل اية دعوة غير مبنية على اساس قوي تدعمها الحجج وواقع اللغة ،

ولن يكون اعتراف بمجدد يبني أصوله على الجديد بحجة ان المحدثين اكثر اطلاعا من القدماء واوسع أفقا ؛ وكثيرا ما يفتقد الجديد صفة الجودة لانه ليس أصيلا .

وتكلم ادور مرقص في مقالته « نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها » على أنواع البديع المقترحة، قال : « وقد فكرت في ذلك مليا وقلت ان هذا الفن اصبح معرضا لناموس رد الفعل فهو الان محتاج الى شيء من الانفغام والاندماج عوض ما وقع فيه من التمدد المفرط المحسوب مثلة ومتاهة . ومن ثم اجتهدت في رد انواعه الى اجناس قليلة يدخل تحت كل جنس منها عدة انواع »(٦) . وامهات الاجناس البديعية التي تنبه لها : الموافقة ، والمخالفة ، والترتيب ، والمبالغة ، والاستدراج ، والتلميح ، وحسن التعليل ، والايهام ، والتدقيق ، والتوليد ، والكلام الجامع . اما الموافقة فتنطوي على : انواع الجناس والمراجعة والتوشيح وتشابه الاطراف والتفويف والتصدير ومراعاة النظير والتمثيل والتوجيه والترديدوالتكرار والمناسبة والتشبيه والتفصيل والمشاكلة والجمع والتصريع وتشبيه شيئين بشيئين والاتفاق والمماثلة والتسهيم والتطريز والترجيع والتفريع والسجع والتسميط والالتزام وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع الوزن وائتلاف المعنى مع المعنى والحذف والتدبيج .

واما المخالفة فينطوي تحتها : الطباق والمقابلة وايهام التضاد والمناقضة والعكس والتفريق والسلب والايجاب والرجوع والاستدراك .

واما الترتيب فينطوي تحته : الترتيب والطي والنشر وايهام التناسب والاطراد والتقسيم والتفسير والايضاح وحسن النسق والتشطير والتعديد وجمع المؤتلف والمختلف والمزاوجة والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق .

واما المبالغة فتشتمل على : التبليغ والاغراق والغلو والقسم وتجاهل العارف والاستثناء وحصر الجزئي والحاقه بالكلي .

واما الاستدراج فيشتمل على : الافتنان والاستتباع ، والادماج وحسن التخلص وعتاب المرء نفسه .

واما التلميح فيدخل في دائرته : التلميح والاشارة والاكتفاء والتوجيه والاقتباس والتضمين والابداع والالغاز وبراعة المطلب .

واما حسن التعليل ففيه : حسن التعليل والالتفات والمذهب الكلامي والاتساع والمغايرة .

واما الايهام ففروعه : الايهام والمدح في معرض الذم والذم في معرض المدح والتورية والاشتراك والاستخدام .

واما التدقيق فاقسامه : التشريع والايغال والاعتراض والاحتراس والفرائد او التنكيت والتكميل.

واما التوليد ففروعه : التوليد وسلامة الاختراع وحسن الاتباع .

واما الكلام الجامع ففيه : الكلام الجامع وارسال المثل .

واضاف جنس الكناية وهو عنده الكناية والتعريض والارداف والايضاح والقول بالموجب .

وهذه الاجناس المنطوية على هذه الانواع لاتقتصر على الالوان المختصة بفن البديع وانما تذكر بعض ما يتصل بعلم البيان وتبقى موضوعات علم المعاني بعيدة عن هذا التصنيف . ويبدو ان الباحث نظر الى البلاغة من خلال البديعيات ولاسيما « خزانة الادب » للحموي.

ويرى انيس المقدسي ان تبويب موضوعات البلاغة القديم لا يفيد كثيرا ولذلك وضع تبويبا آخر ليكون اقرب الى واقع اللغة ، قال : « راينا ان مقاييس البلاغة لم توضع اعتباطا ولا توقيفا بل ترجع الى اعتبارات نفسية عامة . وقد اهتم علماء العربية قديما بهذه المقاييس وتدارسوها في اقسامها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وافتن الشعراء والمنشؤون في التأنق بصورها ، على ان العلماء مع توفرهم على درسها

وشرحها لم يعنوا بتبويبها منطقيا يسهل على الباحث فهم حقيقتها والرجوع الى اصولها » (٧) . وبوبها تبويبا جديدا وحصرها في ستة ابواب هي : باب التعادل ويراد به تماثل الفقرات في الجمل وزنا وتركيبا ، وقد يسمى الازدواج ويدخل فيه التوازن والمماثلة والسجع والتسميط والترصيع والتزاوج .

وباب التواطؤ اللفظي : وهو أن تكون الالفاظ على جرس واحد أو من احرف متشابهة سواء اختلفت في المعنى ام لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن الى المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين وعلى ما فيهما من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتآلفها . ويدخل فيه : الجناس والتورية والتصدير والعكس والجمع مع التفريق والمجاورة والطي والنشر .

وباب المغايرة : وهو عكس المشابهة ويراد بها مشابهة بين شيئين ، ومنه التشبيه والتمثيل والاستعارة ومراعاة النظير وتجاهل العارف .

وباب المغايرة : وهو عكس المشابهة ويراد بها الجمع بين المتضادات او اشباهها ، ويدخل فيه المقابلة والمطابقة والطرد والعكس والتهكم والاستفهام البياني والتغاير والسلب والايجاب . وقد يدخل تحت هذا الباب المناقضة والاستدراك والاستثناء والمجاورة والترديد وغير ذلك من هذه المقابلات .

وباب الخروج عن المعتاد : ويشمل المجاز المرسل والتجريد والالتفات وتقديم ما حقه التاخير وبالعكس وتاخير المتقدم والغلو والمبالغة .

وباب الايماء الى غرض : ويدخل فيه الكناية والتوجيه والاكتفاء والاتفاق والاشارات اللغوية والعلمية والادماج والتذييل والتتميم .

ولا يختلف هذا المنهج كثيرا عن منهج السابق ؛ فكلاهما عودة الى البلاغة كما حددتها البديعيات ، وتنسيق لموضوعاتها التي جاءت غير منسقة او موزعة في ابواب متجانسة . وليس هذان المنهجان ببعيدين عن عمل السجلماسي الذي عاش في القرن السابع للهجرة فقد صنف موضوعات البلاغة ووزعها على عشرة اقسام هي : الايجاز ، والتخييل ، والاشارة ، والمبالغة ، والرصف ، والمظاهرة ، والتوضيح ، والاتساع ، والانثناء ، والتكرير . وادخل في كل قسم الفنون المتجانسة ، ففي التخييل ـ مثلا ـ ادخل التشبيه والاستعارة والمماثلة والمجاز ، وفي الاشارة وضع الاقتضاب والايهام والتتبيع والكناية والتعريض والتلويح والتنويه والتعمية والايماء واللحن والرمز والتورية . وهو توزيع ملائم لطبيعة الجنس الذي اتخذه عنوانا للباب .

هذه اهم المناهج التي ذكرها المحدثون ، ولعل اقربها الى واقع البلاغة العربية منهج الخولي لانه يقوم على التراث البلاغي والنقدي ويستفيد من المناهج الغربية التي بدات تدخل الدراسات العربية . ولكن منهج الخولي يحتاج الى اعادة نظر ، وقد اشار ـ رحمه الله ـ الى ذلك لانه يؤمن بان الحياة الادبية تتطور ، وما هو صالح اليوم قد يكون غير جدير بالاهتمام بعد حين . ولولا اسراف الخولي بالاعتماد على الدراسات المتغيرة وتوزيعه بعض الموضوعات لكان من ادق المناهج ولاصبح عمدة البحث البلاغي الجديد .

ان البحث في البلاغة يقتضي العودة الى التراث واستقرائه واخذ ما فيه النفع وانارة السبيل . وليست كل الكتب نافعة في هذا الميدان ففي كثير منها ما تخطاه الزمن وما لا يصلح للحياة المعاصرة ولكن جهود البلاغيين تظل اساسا في رسم المنهج وطريقة عرض الموضوعات، ولعل آثار المدرسة الادبية اكثر الكتب نفعا في هذه الدراسة لانها تحمل بذور الذوق الاصيل والنظرة الفنية الصادقة . ولكن البحث البلاغي ليس تذوقا فحسب وانما هو منهج علمي يرصد الفنون وينسقها في ابواب متجانسة ولذلك تكون العودة الى كتب المدرسة الكلامية مهمة لانها تضبط القواعد وتحدد الاصول . والدراسة العلمية الحديثة احوج ما تكون الى الضبط والتحديد ووضع المعالم في الطريق ، وليس الفن ببعيد عن ذلك

والا اصبح خواطر مبعثرة ورسوما باهتة لا تكشف صورة ولا تبين .

وكتاب « الايضاح » للخطيب القزويني وشروح التلخيص تبقى مصدرا اساسيا للبحث البلاغي لان فيها التقسيم العقلي والتحديد المنطقي والعرض الدقيق . ولكنها لا تمكس التصور الجديد اولا ، ولان فيها كثيرا من المباحث الغريبة عن البلاغة ثانيا . واول عمل يقوم به المجدد النظر في تلك الكتب وتجريدها من كل غريب واضافة ما ينفع ويلقى ضوء على الفنون . ويتمثل هذا النظر في مسالتين :

الاولى : المنهج ، وهو صورة من منهج السكاكي وان اجرى فيه القزويني بعض التعديل(٨) . فقد قسم القزويني البلاغة الى مقدمة ومقاصد ، والمقدمة في الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة ، والمقاصد في تبيان المعاني والبيان والبديع . وهذا تقسيم غير دقيق لانه اخرج الفصاحة عن المقاصد وجعلها مقدمة وهي جزء مهم من البحث البلاغي لان الكلمة المفردة عنصر اساسي في أي عمل فني اداته الكلمة ولانها من مقاصد فن القول لا من مقدماته ، وقد اولاها الخولي اهمية من حيث هي عنصر لغوي ، ومن حيث هي جزء الجملة ، ولها وضع يحدده النظم ويخضع للبيئة وللتطور الحضاري ، وكان المتقدمون قد اهتموا بالالفاظ وجرسها وعقد لها ابن سنان في

« سر الفصاحة » وابن الاثير في « المثل السائل » فصولا ولذلك ينبغي أن تبحث في البلاغة الجديدة بحثا عميقا وأن تكون من مقاصدها لا من مقدماتها .

وقسم علم المعاني الى ثمانية أقسام هي : احوال الاسناد الخبري ، واحوال المسند اليه ، واحوال المسند ، واحوال متعلقات الفعل ، والقصر ، والانشاء ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة . ووجه الحصر ان الكلام خبر أو انشاء ، لانه اما أن يكون لنسبته خارج تطابقه او لاتطابقه ، أو لا يكون لها خارج ، الاول الخبر ، والثاني الانشاء ، ثم الخبر لا بدله من اسناد ومسند اليه ، واحوال هذه الاضرب الثلاثة هي الابواب الثلاثة الاولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة اذا قرنت باخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الاولى أو غير معطوفة وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن (٩) .

بهذا الاسلوب حصر بحوث علم المعاني وهو حصر منطقي لولا انه قطع اوصاله ! لان ما يطرأ على الخبر يطرأ على الانشاء ، ولعل تقسيمه الى الخبر والانشاء واحوال الجملة وما فيها من تعريف وتنكير ، وذكر وحذف ، وتقديم وتأخير وقصر وخلافه ــ وفصل

ووصل ، وايجاز واطناب ومساواة ، وخروج على مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر ووضع المظهر موضع المضمر والقلب والاسلوب الحكيم والتغليب والالتفات ـ خير واجدى لان هذا التقسيم يجمع اجزاء الموضوع الواحد ويوحد بينها وينسقها في عرض بديع .

وقسم علم البيان الى المجاز والكناية لدلالتهما العقلية واخرج التشبيه لان دلالته وضعية لا يؤتى بها المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . ولكنه بحثه كما فعل السكاكي وقدمه لان احد انواع المجاز وهو الاستعارة مبني عليه ، وليس في هذه الحجة ما يسوغ اتجاههم ؛ لان التشبيه فن كثير الاستعمال في اللغة العربية وله صور متعددة حفل بها القرآن الكريم وكلام العرب . ان تقسيم علم البيان الى تشبيه ومجاز وكناية من غير ذلك الربط العقلي انفع وهو يعطي كل فن قيمته وان كان بعضها متصلا ببعض كالاستعارة التي هي تشبيه بليغ حذف فيه المشبه أو المشبه به .

وقسم علم البديع الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى ، وآخر يعود الى اللفظ . وهو تقسيم غير دقيق لان اكثر فنون البديع متداخل . والاقرب الى الدقة ان توزع الالوان المهمة ويدرس بعضها في الالفاظ كالسجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم مالا يلزم والموازنة كما فعل ابن الاثير حينما درسها في الصناعة اللفظية ، والخولي حينما ادخلها في الكلمة من حيث هي عنصر

لغوي . ويدرس بعضها مستقلا أو في أبواب تجمع الاشباه والنظائر كما فعل السجلماسي حين ادخل في جنس الاشارة : التلويح والابهام والايماء واللحن والرمز والتورية ، وادخل في المبالغة : الاغراق والسلب والايجاب والغلو والتجاهل والتجريد والتشكيك والتداخل والملابسة ، وادخل في الرصف : الارصاد والمقابلة والالتفاف والتقسيم والتسهيم ، وادخل في التكرير ، المشاكلة والمناسبة وتجنيس المماثلة وتجنيس المضارعة وتجنيس التركيب وتجنيس الكناية والتلفيق والترصيع والموازنة والتناسب وغيرها . وتهمل الانواع التي ليس لها تاثير في التعبير ولا تبعث في الكلام رونقا وطلاوة وتضفي عليه بهاء وجمالا ، وقد فعل القدماء مثل ذلك واهملوا ما لا اثر له في المعنى ولا في روعة الكلام، قال القزويني بعد ان ذكر فنون البديع : « هذا ما تيسر — باذن الله تعالى — جمعه وتحريره من أصول الفن الثالث ، وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين منها ما يتعين اهماله لاحد سببين : لعدم دخوله في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ مع انه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطة او غير منقوطة ، ونحو مالا اثر له في التحسين كما يسمى الترديد . او لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتاخرين مما هو داخل فيما ذكرناه كما سماه الايضاح فانه في الحقيقة

راجع الى الاطناب ؛ أو خلط فيه كما سماه حسن البيان . ومنها ما لا باس بذكره لاشتماله على فائدة وهو شيئان :

احدهما : القول في السرقات الشعرية وما يتصل بهـا .

والثاني : القول في الابتداء والتخلص والانتهاء . فعقدنا فيهما فصلين ختمنا بهما الكتاب »(١٠) .

فالقزويني اخرج ما لا اهمية له في التعبير ولكنه الحق موضوعات مهمة بالبديع أو بالبلاغة كلها وهي السرقات ؛ وحسن الابتداء والتخلص والانتهاء . وليست السّرقات مما يلحق بالبلاغة وانما هي دراسة حية تعنى بعملية الابداع والابتكار ومعرفة المجدد من المقلد ، ولذلك فان بحثها في باب مستقل يغني دراستها ويعطيها قيمة كبيرة ويضعها حيث ينبغي ان توضع من الدراسات البلاغية والنقدية . واما حسن الابداع والتخلص والانتهاء فهي من اصول بناء العمل الفني الذي يسعى فيه منشئه الى الوحدة التي تربط اجزاء القصيدة او الخطبة او الرسالة او المقالة او القصة ، وبذلك تاخذ هذه الموضوعات الثلاثة موقعا مهمـا في الدراسات النقدية والادبيـة .

ان منهج البلاغة كما وصل الى الباحثين في هذا العصر نافع ولكنه لا يحقق الهدف الا في بعض ابوابه من

تمزق سببته النظرة المنطقية والحصر الدقيق . ولعل الملاحظات التي سبقت تنفع في رسم المنهج الجديد ، وهو منهج ينبغي ان يظل مرتبطا بالتراث البلاغي والنقدي عند العرب ويصور الواقع الادبي في هذه الايام .

الثانية : المعالجة ، ويراد بها طريقة القزويني وشراح تلخيصه في دراسة الموضوعات البلاغية . وقد اصبحت البحوث الجديدة لا تحتمل اقحام المباحث الغريبة عن القضية المدروسة ، ولذلك ينبغي تجريد البلاغة من المسائل الكلامية والفلسفية وهي كثيرة في شروح التلخيص ، والابتعاد عن الطرائق المعقدة في الشرح والتحليل لانها تفقد النص قيمته الادبية . فما ينبغي تخلية البلاغة منه الدراسات الفلسفية والكلامية والمنطقية والدلالات والبحث في النسب الكلامية والذهنية والخارجية والجامع وانواعه والكلام على الحواس الخمس بما يبعد التشبيه عن الهدف ، والتعليلات الفقهية والنحوية التي لا تخدم البحث البلاغي . وتبقى هناك قضايا كثيرة ينبغي الاخذ بها والاستفادة منها ، ومن ذلك المصطلحات البلاغية التي استقرت وصارت لها دلالة واضحة لان تغييرها يثير الاضطراب ولا يقدم جديدا ، ومنها الاقسام المهمة للفن الواحد لان القدماء استقروها من كلام العرب ولا غناء عنها ، ومنها الفنون التي سبق ذكرها في المنهج ، وهي فنون تمثل الاسلوب العربي البليغ ، اما بعض ما ذكره المتاخرون من الوان

البديع فاهماله اولى لانه لا يمثل كلام العرب واسلوبه الرفيع . وينبغي ان تستقرى الفنون قبل الحكم عليها، فكم من صور انكرت لان المتاخرين عنوا بها وهي ماثلة في كتاب العربية الاكبر وفي كلام العرب البلغاء . اي ان مهمة الباحث صعبة ولا يقوى على التجديد الا من وطن نفسه لهذا العمل وقضى فيه زمنا طويلا يقرأ ويعيد النظر ، ويحذف ويضيف ليبقى فن القول متطورا وليظل مرتبطا بكلام العرب .

تلك نظرة في مناهج البحث البلاغي وتبقى مسالة اخيرة تعطي المنهج بعدا جديدا وهو معالجة فنون القول . وقد اتضح في الموازنة بين السكاكي وابن الاثير ان الاول ينحو منحى عقليا في العرض والتحليل ، وان الثاني يسلك مسلكا ذوقيا ، والفرق بين الاتجاهين كبير ولا يغني احدهما عن الاخر لان الباحث ينبغي ان يضع يده على مواطن الجمال والروعة والتاثير في النص الادبي ، ولايكتفي بالاشارة الى ذلك الجمال لانه لا يقنع الدارس ولا يقرب اليه الموضوع . وقد سادت في هذه الايام البنيوية التي تدح شرارتها الاولى في هذا العصر فردنان دي سوسير واقام اللغة على ما بين كلماتها وجملها من علاقات(١١) . ودخل هذا المنهج في كثير من الدراسات المعاصرة وكان النقد احد تلك الميادين ولكن المتاثرين بذلك من العرب حولوا الادب احصاء للالفاظ وخطوطا بيانية وزوايا قائمة او حادة او منفرجة واقواسا رياضية

واشـمة تنبعث من عدسات متمرة او محدبة ؛ وطغى المنهج الشكلي وغاب الاحساس بجمال النص وتأثيره في النفوس . وفي كتب البلاغة والنقد ما يعين كثيرا في رسم منهج للتحليل ورصد الظواهر الفنية ، ولعل كتابي « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني من احسن الكتب التي تعين الناقد العربي وتحقق الهدف الذي يسعى اليه المجددون . فقد أقام هذا العبقري بلاغته ونقده على نظرية النظم ،وهي ليست ببعيدة عن المنهج البنيوي الجديد ولكنها تعطي النص حياة وتبعث في المتلقي شعورا بجماله . فالنظم عند عبدالقاهر « تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض »(١٢) أي انه توخي معاني النحو :

وقـد علمنـا بان النظـم ليس سوى
حكـم من النحـو نمضـي في توخيـه

او كما قال : « واعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»(١٢) ولكنه لايريد بالنحو ماتعارف عليه المتاخرون من اهتمام بالعامل والبناء والاعراب ، وانما يريد العلاقات القائمة بين الكلم ، ولذلك قال : « انّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروعه فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق »

و « زيد ينطلق » و « ينطلق زيد » و « منطلق زيد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زيد » و « زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق » . وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك بـ « ان تخرج أخرج » و « ان خرجت خرجت » و « أن تخرج فانا خارج » و « أنا خارج ان خرجت » و « انا ان خرجت خارج » . وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : « جاءني زيد مسرعا » و « جاءني يسرع » و «جاءني وهو مسرع » او هو يسرع» و « جاءني قد أسرع » و « جاءني وقد أسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له . وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو ان يجيء بـ « ما » في نفي الحال وبـ « لا » اذا اراد نفي الاستقبال وبـ « ان » فيما يترجح بين ان يكون وان لا يكون وبـ « اذا » فيما علم أنه كائن . وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع « ثم » وموضع « أو » من موضع « أم » وموضع « لكن » من موضع « بل » . ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم والتاخير في الكلام كله ؛ وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع

صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هـذا الاسم الا وهو معنى من معاني النحو قد اصيب به موضعه ووضع في حقه او عومل بخلاف هذه المعاملة فازيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له . فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم او فساده ، او وصف بمزية وفضل فيه الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى معاني النحو واحكامه ووجدته يدخل في أصل من اصوله ويتصل بباب من ابوابه »(١٤) .

فالفرق بين هذه الاساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات وانما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق (١٥) . وقد طبق عبدالقاهر هذه النظرية على كلام الله وانتهى الى انه معجز بالنظم وقال : « فاذا ثبت الان أن لاشك ولا مرية في أن ليس النظم شيئا غير توخي معاني النحو واحكامه فيما بين معاني الكلم ، ثبت من ذلك ان طالب دليل الاعجاز من نظم القرآن اذا هو لم يطلبه في معاني النحو واحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم أنها معدنه ومعانه(١٦) وموضعه ومكانه وانه لا مستنبط له سواها وان لا وجه لطلبه فيما عداها غار نفسه بالكاذب من الطمع ومسلم لها الى الخدع ، وانه ان ابى ان يكون فيها كان قد ابى ان يكون القرآن معجزا بنظمه ولزمه أن يثبت شيئا اخر يكون معجزا به وأن لا يلحق باصحاب الصرفة فيدفع

الاعجاز من اصله . وهذا تقرير لا يدفعه الا معاند بعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزا والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلدا ، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الانسانية »(١٧) . وحلل النصوص الادبية في ضوء نظرية النظم ، وربط بها صور البيان كالتمثيل والاستعارة والكناية ، ونظر الى السرقات من خلالها ولم يحكم عليها باخذ المعاني العامة او الالفاظ وانما بترتيب الكلام واخراجه في صورة جديدة (١٨) .

ومن امثلة تحليل عبدالقاهر للنصوص قوله في الابيات :

بلونا ضرائبَ مَنْ قد نرى
فما إن راينا لفتح ضريبا

هو المرء ابدت له الحادثا
ت عَزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقل في خلقي سؤدد
سماحا مرجى وباسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا
وكالبحر إن جئته مستثيبا

« فاذا رايتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازا في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر ، فانك تعلم ضرورة ان ليس الا ان قدم واخر ، وعرف

ونكر ، وحذف واضمر ، واعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فاصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه واتى ماتى يوجب الفضيلة . افلا ترى ان اول شيء يروقك منها قوله : « هو المرء ابدت له الحادثات » ثم قوله : « تنقل في خلقي سؤدد » بتنكير « السؤدد » واضافة « الخلقين » اليه ، ثم قوله : « فكالسيف » وعطفه بالفاء مع حذف المبتدا لان المعنى لا محالة « فهو كالسيف » . ثم تكريره الكاف في قوله : « وكالبحر » ، ثم ان قرن الى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ـ اي في كل واحد ـ ثم ان اخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما اخرج من الاخر ، وذلك قوله : « صارخا » هناك و « مستثيبا » ههنا . لا ترى حسنا تنسبه الى النظم ليس سببه ما عددت او ما هو في حكم ما عددت فاعرف ذلك » (١٩) .

وكان ابن قتيبة قد قال عن الابيات :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالاركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطي الاباطح

« هذه الالفاظ ـ كما ترى ـ أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وان نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا ايام منى واستلمنا الاركان وعالينا إبلنا الانضاء ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الابطح » (٢٠) .

وحللها عبدالقاهر تحليلا بديعا وأظهر روعة الاستعارة فيها ، فقال : « انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا الا الى استعارة وقعت موقعها واصابت غرضها او حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الاذن ، والا الى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد ، وشيء داخل المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي يستثقل مكانه والاجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها واعتمد دليل حال غير مفصح ، او نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح . وذلك ان اول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر انه قال : « ولما قضينا من منى كل حاجة » فعبر عن قضاء المناسك باجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق امكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم ثم نبه بقوله : « ومسح بالاركان من هو ما سح » على طواف الوداع

الذي هو اخر الامر ، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : « أخذنا باطراف الاحاديث بيننا » نوصل بذكر مسح الاركان ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ثم دل بلفظة « الاطراف » على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث او ما هو عادة المتطوفين من الاشارة والتلويح والرمز والايماء ، وانبا بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط وفضل الاغتباط كما توجبه الفة الاصحاب وانسة الاحباب وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الاياب ، تنسم روائح الاحبة والاوطان واستماع التهاني والتحايا من الخلان والاخوان، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وافاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح اولا بما اوما اليه في الاخذ باطراف الاحاديث من انهم تنازعوا احاديثهم على ظهور الرواحل وفي حالة التوجه الى المنازل ، واخبر بعد بسرعة السير ووطاءة الظهر اذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الاباطح وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله لان الظهور اذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا . ثم قال : « باعناق المطي » ولم يقل « المطي » لان السرعة والبطء يظهران غالبا في اعناقها ، ويبين امرهما من هواديها وصدورها ، وسائر اجزائها تستند اليه في

الحركة وتبعها في الثقل والخفة ويعبر عن المرح والنشاط اذا كانا في انفسها بافاعيل لها خاصة في العنق والراس ، ويدل عليها بشمائل مخصوصة في القاديم . فقل الان هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من الفاظها حتى أن نفضل تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة ، ولو ذكرت على الانفراد ، وازيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتاليفه وترصيفه حتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي وان ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها واكتسبت بهاء بمضامة اترابها ، فانها اذا جليت للعين نردة وتركت في الخيط فذة لم تعدم الفضيلة الذاتية والبهجة التي في نفسها مطوية ، والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة واكتنافها لها في عنق الغادة وصلتها بريق حمرتها والتهاب جوهرها بانوار تلك الدرر التي تجاورها ولالاء اللاليء التي تناظرها ، تزداد جمالا في العين ولطف موقع من حقيقة الزين ، ثم هي ان حرمت صحبة تلك العقائل وفرق الدهر الخؤون بينها وبين هاتيك النفائس لم تعر من بهجتها الاصلية ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية . كلا ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ وان كان لا يبعد أن يتخيله من لا ينعم النظر ولا يتم التدبر . بل حق هذا المثل أن يوضع في نصرة بعض المعاني الحكمية والتشبيهية بعضا وازدياد الحسن فيها بان يجامع شكل منها شكلا ، وان يصل الذكر بين متدانيات في ولادة العقول اياها ومتجاورات في تنزيل الافهام لها »(٢١) .

وقال في البيت :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا
أنصاره بوجوه كالدنانير

« فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازنته لها . وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فازل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل : « سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا انصاره » ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم اريحيتك التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها »(٢٢)

وجرى عبدالقاهر على هذا المنهج في تحليل النصوص، وهو منهج علمي يعتمد على أصول النحو ومقاييسه ويقتبس من الوجدان ملامحه ورسومه ، وبذلك أقام هذا الفذ البلاغة والنقد على العلاقات بين الكلم او « نظرية النظم » التي ارتفعت الاصوات بالعودة اليها حينما ظهر المنهج البنيوي واخذ به بعض الدارسين ، وكان قبل ذلك نسيا منسيا .

تلك ملامح عامة للبحث البلاغي عند العرب ، وقد اتضح انه نشأ كغيره من البحوث اللغوية ونما وازدهر، ثم اصيب بنكسة بعد القرن السابع .

والمنهج الجديد يقتضي العودة الى التراث البلاغي والنقدي ليؤخذ منه ما فيه النفع ، ويوضع منهج يقوم على اساسين :

الاول : اعادة النظر في المنهج القديم وتصنيف فنون القول تصنيفا جديدا ليس فيه اضطراب أو مجافاة للنزعة الادبيـــة .

الثاني : اعادة النظر في معالجة الفنون ووضع منهج تحليلي يعتمد على ما بداه عبدالقاهر الجرجاني ، وهـو منهج يتخذ من العلاقات بين الكلم سـبيلا ، ومن الذوق الرفيع دليلا .

وسيظل هذان الاساسان عرضة للنظر حتى يتحقق المنهج البلاغي الدقيق .

الدكتور احمد مطلوب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٢٠١

١٠٢

الهوامش

(١)

النشأة

(١) اللسان (بلغ) .
(٢) القصص ١٤ .
(٣) الأحقاف ١٥ .
(٤) النحل ٧ .
(٥) النساء ٦٣ .
(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٦٠ .
(٧) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .
(٨) الإيضاح ص ٩ ، التلخيص ص ٣٣ .
(٩) الإيضاح ص ١١ ، التلخيص ص ٣٦ .
(١٠) الإيضاح ص ١٢ ، التلخيص ص ٣٧ .
(١١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(١٢) الإيضاح ص ٢١٢ ، التلخيص ص ٢٢٥ .
(١٣) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(١٤) الإيضاح ص ٢٢٤ ، التلخيص ص ٢٤٧ .
(١٥) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

(١٦) ينظر مصطلحات بلاغية ص ٩٤ وما بعدها .

(١٧) الايضاح ص ٩ ، ١١ ، التلخيص ٢٢ ، ٢٦ .

(١٨) الرحمن ١ — ٤ .

(١٩) البقـرة ٢٠٤ .

(٢٠) مشدودة السك : يعني درعها . الموضونة : المنسوجة كالوضين وهو حزام الرحل المنسوج ، الاتي : السيل . الجديد : الاملس من الارض .

(٢١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٢٧ .

(٢٢) ينظر البيان ج١ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢٣) ينظر البيان ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢٤) ينظر تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٩ ، ودروس في البلاغة وتطورها ص ١٠ .

(٢٥) نقد الشعر ص ١٩٦ .

(٢٦) ينظر نقد الشعر ٢١٤ ، وكتاب الصناعتين ص ٩٨ .

(٢٧) البيان ج ١ص ٩٦ .

(٢٨) الرسالة العذراء — رسائل البلغاء ص ٢٥٢ .

(٢٩) العمدة ج١ ص ٢٤٢ ، وفي عروس الافراح ج١ ص ١٢٦ : « كلمة تكشف عن البقية » — بالفتح — .

(٣٠) العمدة ج١ ص ٢٤٥ ، عروس الافراح ج١ ص ١٢٧ .

Little Encyclopedia

A Fortnightly Cultural Series dealing with various branches of Science, Art, and Literature

Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafä Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان